شروق الظلام

" رواية "

نهى شبلاق

شروق الظلام

" رواية "

اسم الكاتبة: نهى شبلاق
تدقيق لغوي: محمد ربيع – محمد صقر
تصميم الغلاف: عبير محمد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
رقم الإيداع: ٢٥٢٠٣ / ٢٠١٧

١١٤ عمارات جنوب الأحياء – مدينة السادس من أكتوبر
موبايل و واتس : ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،
أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍّ من الناشر؛
يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

(تنبيه)

إن الشخصياتِ الواردةَ في الصفحات التالية،

لا تعَبِّرُ إلا عن نفسِها

ولا تمثل أي فئة من فئات المجتمع،

وأي تشابه بين الشخصيات أو الأحداث

فهو محض صدفة.

إذ إن القصة بالكامل من خيال المؤلفة.

نهى شبلاق

* * *

(شكر وإهداء)

- إلى التي منحتني الحياة، "أمي".
- إلى الذي فتح لي أبوابها، "أبي".
- إلى الذي علمني كيف أحياها، "زوجي".
- إلى جمهوري الأول، أختي "ندى".
- إلى الصديقات، "مرفت نعيم" ، "كوثر الطيب".

كان أبو سالم جالسًا على الكرسي المقابل للكرسي الذي يجلس عليه أبو ربيع في غرفة المعيشة، بعد ذهاب الجميع وانقضاء مجلس العزاء الذي أقيم بسبب وفاة ياسمين، الابنة الكبرى لأبي ربيع. ينظر تارة إلى (أبو ربيع)، وتارة أخرى يسترق النظر إلى المَمَرِّ المؤدي إلى غرف المنزل. نظر إلى ساعته، ثم اقترب من (أبو ربيع) وجلس بجانبه، شعر بالارتباك والحرج قليلا، ثم قال:

- أحسن الله عزاءكم، غفر لفقيدتكم وألهمكم الصبر.

نظر أبو ربيع إلى الرجل الستيني، الجالس بجانبه، الجاحظ العينين، الأصلع الرأس في المنتصف، الطويل الوجه، وتَمْتَمَ قائلًا:

- الحمد لله على كل حال..

- تأخرتُ، ربما ترغب بالراحة بعد انقضاء أيام العزاء؟

نظر إليه أبو ربيع بنصف ابتسامة، وبقي صامتًا، وضع أبو سالم يده فوق يد (أبو ربيع) وقال:

- سأذهب إذن لأتركك ترتاح قليلًا، ولكن قبل هذا، أريد أن أحدثك بموضوع، ولكنني أشعر بالحرج، ولكن وكما يقال، الجار للجار، ولا بد من أن أخبرك بما يجول في صدري...

- تحدّثْ، قل ما تريد يا رجل...

- أنا في الحقيقة، كنت أتساءل.... أعلم أن ابنتك الصغرى ترتدي حجابًا كاملًا يخفي حتى وجهها، وكانت الراحلة ياسمين كذلك أيضا، ولكن الغريب، أن الابنة الوسطى، لا ترتدي أي حجاب، وتخرج هكذا، كما خلقها ربي.....

فَغَرَ أبو ربيع فاه، وفتح عينيه على اتساعهما، ونظر إليه باستغراب تام :

- ابنتي نرجس؟ ماذا تقصد يا رجل بهكذا كما خلقها ربي؟

- أقصد، بملابسها، بلا غطاء كامرأتك أو امرأتي..

- أه، نرجس؟ نرجس ابنتي صغيرة يا رجل، لا تزال تذهب إلى المدرسة..

- ولكنها أنثى بغض النظر عن عمرها، أنا فقط كنت أود لفت انتباهك لا أكثر، يبقى هذا شأنًا عائليًّا داخليًّا.. إلا أنني جار ومن واجبي نصحك وإرشادك، فبعض الوحوش البشرية لا تفرق بين طفلة وناضجة، فالأنثى تبقى أنثى مهما كبرت أو صغرت...

- أه.. أه... صحيح، كلامك صحيح، فقد فُجِعْنا أنا وأم ربيع بخبر وفاة ابنة أبي ساهر اللحام بعد اختفائها عدة أسابيع قبل إيجادِ الجثة.

تفاجأ أبو سالم بحديث (أبو ربيع)، وشعر بالذعر الذي كاد يفقده صوته..

- م... م... مم... من... ماذا؟ وجدوا جثتها؟ متى حدث هذا؟

- بالأمس أخبرني أبو ساهر بنفسه، فقد جاء مبكِّرًا، قبل مجيء الجميع، قام بمواساتي، وأخبرني بما حدث، وغادر على الفور..

- و... هل عرفوا الفاعل؟

- لا، ليس بعد، ولكن هناك مشتبه به... والدتها تقول أنها لاحظت أحد الشبان يلاحقها عدةَ مراتٍ، في الآونةِ الأخيرة قبل اختفائها، ولكنها ظنت أنها مصادفةٌ، لأن الشاب كان زبونا لدى والدها، فكان يكمل طريقه إلى محل الوالد بعد وصول الفتاة إلى منزلها والذي يبعد خطوات قليلة عن المحل.

- احم.... هذا مُحْزِن..

- جِدًّا، وأعترف أن ما حدث لأبي ساهر خَفَّفَ عني قليلًا ما أشعر به من حزن.

- و أنا أعترف أيضًا... بأنني أشعر بالغبطة لأنني لم أرزق بأية بنات..

نظر إليه أبو ربيع بغضب، واستياء كبيرين:

- لماذا تقول هذا يا رجل؟!..

قاطعه أبو سالم وقال باستهتار:

- يا رجل، الفتاة فضيحة، وقد تجنبت طوال حياتي الإنجاب حتى لا أرزق بأية بنات، وكم شعرت سابقًا بالسعادة البالغة حين علمت أَنَّ الجنين الذي تحمله زوجتي كان (سالم)...

شَعُرَ أبو ربيع بالإهانة البالغة... واحمرَّ وجهه غضبًا وقال كاظما غيظه:

- أتعلم؟ أنا أشعر بالتعب الشديد، أرغب بالنوم فعلا..

- أه... عفوًا عفوًا... أنا أعتذر، لم أنتبهْ لمرور الوقت، سأغادر وأراك لاحقًا... إلى اللقاء..

أشار أبو ربيع بيده إلى الباب وقال:

- اعذرني، فأنا أشعر بألمٍ في قدميّ، تصبح على خير...

- لا بأس، إلى اللقاء.

نظر أبو ربيع إلى قامة (أبو سالم) الطويلة وراقب نحالة جسده مغادرا منزله، قال لنفسه متمتما بصوت منخفض: (سافل لئيم، حمدًا لله أن العزاء انتهت أيامه، كي لا أراه مرة أخرى)...

قام أبو ربيع وأطفأ جميع الأنوار المضاءة، وعاد إلى كرسيِّه يشعر بالانكسار والخزي، انكبَّ على نفسه متألما معاتبا: (لا بُدَّ أنه العقاب، كنت أنا المتسببَ في ما حدث، ولا أحد غيري يتحمل مسؤولية ما حدث، لا مَهْرَبَ من العقاب، هو جزائي المقدرلي).

لم يكن يشعر برغبة في النوم قط، حسنًا، كان يعاني أبو ربيع من اضطرابات النوم لمدة طويلة، ولم تزده حادثةُ موت ياسمين إلا مزيدًا من الأرق، وتأنيب الضمير، وحين شَعُرَ بالقليل من النعاس فَكَّرَ بأنها قد تكون الفرصة المناسبة لاغتنامها، ولكن وقبل أن يمد جسده على الأريكة، قام بتفقد أهل بيته في غرفهم، للاطمئنان عليهم، وهي العادة التي لزمها كل يوم منذ أن رزق بهم، الجميع نيام.

أم ربيع في غرفتها، غالبها النعاس فورًا من شدة التعب والبكاء، نامت مفطورة الفؤاد، فلم تكن تتوقع ما حدث، رغم أنها كانت تشعر بأن خطبًا ما كان يحدث في حياة ياسمين، كانت تعلم بأنها لم تكن سعيدةً كالسابق، إلا أنها اختارت تجاهل مشاعرها تلك بالكامل، وتعاملت معها وكأنها مشاعرُ غيرُ حقيقية، لا تعدو كونها حرصَ أمٍّ زائد على ابنتها، استطاعت مغالبةَ دموعِها أمام النساء في مجلس العزاء على الرغم من أحاديثهن الجانبية التي كانت تتناول أسباب مقتلِها... ربيع، أيضًا في غرفته يغط في نوم عميق، وأثر الدموع لا يزالُ على خديه، لم يستطع البقاء مع والده في وداع المُعَزِّين، استقبلهم بجفاءٍ وانسحب بهدوء للمكوث في غرفته وحيدًا كعادته..

نرجس ووردة كلتاهما في غرفتيهما، نائمتان بعمق، قام أبو ربيع بتغطية وردة الصغيرة والتي كانت لا تحتمل ملمس الغطاء على جلدها في هذا

الصيف الحار على الرغم من نعومة الغطاء، فكانت دومًا تدفعه بعيدًا على الأرض...

انتهت جولته التفقدية اليومية، عاد إلى أريكته في غرفةِ المعيشة، مَدَّ جسده بالكامل مستسلمًا للنوم، وقبل الغفو بلحظات، لاحظ أن أحدهم كان يقف في الممر المؤدي إلى الغرف..

لا بد أنها الصغيرة وردة، فهذه قامتها، وهكذا هَيْأَتُها، وهي معتادة على المشي خلال النوم في بعض الليالي، كانت تثير فزعهم في البداية إلا أنهم اعتادوا الأمر أخيرًا، فلم تكن تفعل شيئًا أثناء سيرها الليليّ سوى الانتقال من سريرها إلى سرير أمها تندس تحت غطائها، أو إلى الأريكة في المعيشة، أو على الأرض في غرفة المضافة، وإن صادفها أحد أفراد عائلتها أثناء المسير ليلًا، كان يُعيدُها إلى سريرها، مغمضة العينين دون أن تتكلم أو تفعل شيئا، فلا تزال وردة هي طفلة العائلة المدللة، وقد اعتادوا شكلها بعد الحادث، ولم يكن أحدٌ يشعر تجاهها بأي نفور باستثناء ربيع وخاصة في الآونة الأخيرة.

قاوم أبو ربيع النومَ وحاول جاهدًا فتح عينيه، بينما كانت وردة تقترب منه، كان يحاول أن يقاوم الاستسلام للنوم في اللحظات الأخيرة ليعيد وردة إلى سريرها، ولكنه لم يستطع سوى الاستسلام للنوم لثلاث دقائق، ثم فتح عينيه على اتساعهما فجأة، نظر إلى وردة التي كانت تقف أمامه، وتحدق إليه باستمرار بنظرةٍ ثاقبةٍ دون أن ترمش ولو لمرة واحدة، مما أثار الرعب في نفسه، فنهض سريعا، واعتدل في جلسته... - وردة؟

- لا... أنا لست وردة، أنا زهرة..

يفقد أبو ربيع الوعي، وينقل إلى المستشفى على الفور..

(اغتراب)

لحظات من الحنين الجارف نادرة الحدوث بالنسبة لها، هي كل ما شعرت به نرجس، وكأنها كانت طوال تلك الفترة التي عاشتها في (أمريكا) شخصا آخر، بلا ماضٍ، بلا عائلة، خالية من كل شيء، فارغة من الحياة...

نحن لا نعرف حقيقة أنفسِنا إلا من خلال المواقف التي نكون بها، غالبا، هذه المواقف نحن من نضع أنفسنا بها كنتيجةٍ لأفعالنا، كيف تعرف أن الطريق الذي تسير به، هو الطريق الصحيح، أو الخاطئ؟، أنت لن تعرف إلا بعد فوات الأوان وعلى الرغم من حدوث بعض الإشارات التي تؤكّد صواب الاختيار من خطئه إلا أننا عادة نتجاهل كل الإشارات والعلامات ونستمر في ممارسة القرار الخاطئ...

لماذا؟ لماذا الخوف من التغيير؟ ماذا لو كان هناك طريق آخر بالفعل؟ ماذا لو كانت هناك حياة أخرى في مكان آخر بالانتظار؟...

وكأن الحياة عادت إليها من جديد، تسارعت نبضاتُ قلبها، الكثير من الأحداث تسابقت إلى ذاكرتها لتحتلَّ مكان الصدارة، وبرغم التشويش الذي شَعُرَتْ به كنتيجة طبيعية للأحداث الأخيرة التي مرت بها ولتراكم الأفكار والذكريات وظهورها بشكل مفاجئ، إلى أنّ فكرةً واحدةً استحوذت عليها، واستولتْ على تفكيرها، وجعلتها في حالة من اليقظة.

العودة إلى البلاد...

قاومت الإجهاد الذي تشعر به، وسارعت بالبحث عن حاسوبها المحمول في خزانتها تحت ركامٍ من الملابس المبعثرة، والحاجيات غير المرتبة، حقائب، أحذية، قطع قماشية، أدوات زينة، شَعْر مستعار بألوان وأشكال متعددة، وضعت في الداخل بعشوائية، تماثل الحياة التي عاشتها بعشوائيتها.

تناولته واحتاجت مدةً تقارب العشر دقائق أو أكثر لتتذكر كلمة السر الخاصة بفتح الجهاز، على الرغم من استخدامها اليومي له.. فقد كانت تعاني بعض المشاكل المتعلقة بالذاكرة. قامت بحجز تذكرة بل اثنتين للعودة، أقرب موعد هو بعد غد تمامًا كما أخبرها والدها.

تأكدت من جهوزية أوراقها الثبوتية. خبأتها في حقيبة يدها، ثم استلقت على فراشها مُنْهَكَةً، شاردة الذهن، متقدة العواطف، تذكرت حوارها الأخير مع أحمد ليلة أمس، كان لا بد لها أن تختار في نهاية المطاف، ماذا انتظرت طوال تلك السنوات الثلاث التي عرفت بها أحمد، كانت مصادفة بتوقيت غريب، أن يطالبها أحمد بترك سالم، في الوقت الذي يتصل بها والدها مطالبا إياها بالعودة...

بالأمس انتظرت ذهاب سالم إلى عمله الليلي، لتذهب بدورها إلى شقة أحمد ككل ليلة، يتناولان العشاء سويا، يتابعان التلفاز، يخرجان أحيانًا للتنزه، يمزحان، يضحكان، يفعلان كلَّ شيءٍ كحبيبين سعيدين، باستثناء ممارسة العلاقة الحميمة، كانت نرجس تعزو ذلك، لتدين أحمد على الرغم من أنه لم يكن ملتزمًا بشكل كلي بالصلاة أو بأي أمر ديني آخر، وعلى الرغم من أنهما كانا يمضيان الكثير من الوقت سويا إلا أنه لم يحدث أن رأته ذاهبًا

إلى المسجد مثلا، أو يبتهل بدعاء أو يقرأ شيئًا من القرآن، لم يحاول التَّوَدُّدَ لها، لم تَرَه أبدًا بصحبة امرأة، غير أنه كان يحدثها كثيرا، عن الله، وعن الإيمان، والقدريات.

فاستنتجت، أو إنها قامت بتصنيفه كشاب متديّن، على الرغم من أن مظهره الخارجي كان بعيدًا كل البعد عن مظهر المتدينين المعتادة في مجتمعها، فلقد مُلِئَتْ ذراعاه بأنواع شتى من الوشوم، وكان يرتدي أقراطَ أُذُنٍ فضيةَ اللون على شكل حلقات دائرية، وشعره كان كثيفًا في المنتصف كعرف ديك، خفيف من الجوانب، أما اللحية، فكانت تطول وتقصر على حسب الرائج من الموديلات، ولكنها كانت موجودة على الدوام.

لا يُهِمُّها المظهر الخارجي بتاتًا، فقد كانت تعلم أن الجوهرَ أهمُّ من المظهر، على الأقل بالنسبة لها، وليس لأنها وأفراد عائلتها خدعوا بزوج ياسمين بمظهر المتدينين المعتاد، بل لأن هذه كانت قناعتها منذ أن كانت صغيرة، فقد استطاعت التمرد على قانون العائلة الذي يجبر الفتيات على ارتداء الحجاب بمجرد الوصول إلى سن البلوغ، تهربت من هذا الأمر، وكرهته بشدة، ولم تقم والدتها بإجبارها على ارتداء الحجاب كأخواتها، ربما لأنها كانت أقلهن جمالًا، وأكثرهن نحولا، فلم تكن ملفتة بطبيعة الحال.

اعتقدت طوال ذلك الوقت بأن أحمد يكن لها مشاعر حبٍّ من نوع خاص، حب طاهر، شيء ليس موجودًا سوى بالأفلام، لا بد من ذلك، وإلا... فما يكون سبب خوفه عليها، وغيرته، وحرصه على جعلها سعيدة، ومحاولته التواجد معها في معظم الأوقات، دون محاولة لمسها؟!

هي كانت تعامله كصديق، ولكن، في مجتمعها لا وهم أكبر من جملة (صداقة بين رجل وامرأة)، أي رجلٍ سيصادق امرأة دون محاولة النيل منها؟ أي صديقٍ سيقف بجانب امرأة دون استغلال عواطفِها إلى حين إيجاد حبيبة ما لتكمل طريقها معه كزوجة؟ لا صداقة بين الرجل والمرأة، إذن... لا بد أنه يشعر تجاهها بالحب، الكثير من المواقف تثبت ذلك وكان آخرها الأكثر أهمية، فقد كان بمثابة اعتراف ضِمْنِيٍّ بالحب...

طرقت باب الشقة بِلُطْف، ثم فتحته ودلفت إلى الداخل، شيئًا ما كان مختلفا في أحمد تلك الليلة، كان شارد الذهن حزينا، يائسًا..

كان يجلس على الكرسي الخشبي الهزاز، يستمع إلى الموسيقى الميتاليك الصاخبة، ويمضغ العلك بتأنٍّ وبطء..

جلست نرجس على الأريكة المقابلة، بفستانها الوردي المُرَقَّط بالأخضر.

- أحمد، ما بك، اليوم حزين؟..

توقف عن الاهتزاز، نظر إليها بحزن، وكانت عيناه حمراوتين بسبب السهر والإرهاق، نظر إلى جهة النافذة، ولم يُجِبْها، نظرت نرجس إلى النافذة..

- ماذا، أحمد؟

اعتدل أحمد في جِلْسَته، مسح عينيه بيديه، زفر من فمه باضطراب وقال بضعف..

- أنا لم أعد أجيد التمثيل، هذا الحب يقتلني، سأموت عِشْقًا، سأموت..

- نحن معا الآن، نحن معا كل ليلة، كل يوم...

- أشعر بالتعب الشديد، أرغب بالبوح، الصمت يقتلني، مشاعر الحب تجتاحني، ثقلها يكاد يطيح بي، لا أستطيع الإفصاح عنها، وإخفاؤها في داخلي ينهكني، ألا تستطيعين الشعور بي؟ أنا أنهار.. أكاد أن أنهار...

نظرت في عينيه متأثرة...

- أنا آسفة، لأنني أتسبب في عذابك.

- ألا يمكنك فقط ترك (سالم)؟ اتركيه، أرجوك اتركيه...

يصمت قليلًا، ينظر إلى الخارج ويعاود النظر إليها، يضع وجهَها الدائري بين كفيه..

ها أنا قلت ما كنت أتجنب قوله طوال الفترة الماضية، سامحيني أرجوك، فأنا لا أقصد إفساد العلاقة بينكما...

قَبَّلَتْ نرجس باطنَ كفيه على التوالي، نهضت من مكانها، وأثناء وقوفها، قالت:

- ربما حان الوقت لاتخاذ القرار..

غادرت الشقة سريعًا، تشعر بالغبطة، فلقد انتظرت تلك اللحظة كثيرًا، لم تكن تتجرأ على ترك سالم من تلقاء نفسها، لم تعتقد يوما أنها قادرة على الإقدام على فعل كهذا، فقد كانت تحبه بشدة، رغم أنها كرهت ارتباط مصيريهما سويًّا إلى الأبد، ولكنها كانت تعلم أن يومًا ما سيكون مصيراهما الفراق، تقريبا.. هذا ما كانت تفكر به منذ اللحظة الأولى من لقائها أحمد..

(إذن، سأخبر أحمد بقراري ترك سالم، وسنعود إلى البلاد سويّا، هذه المرة سأهزم ضعفي، سأهزم الحب).

فكّرت وهي تنظر إلى سقف غرفتها منهكةً تماما، أغمضت عينيها... تذكرت ما حدث بعد سنة واحدة فقط من زواجها، وهو الأمر الذي حَوَّلَ حياتها إلى جحيم لا يطاق، فبعد سنة من الاغتراب دون عمل، ودون مصدر رزق ثابت، جاء سالم إلى المنزل وكان برفقته رجل، ضَخْمُ البنية، أسودُ البشرة، صدره الممتلئ بالعضلات أخافها بشدَّة، وكان يحمل معه علبة مُغَلَّفَة، دعاه سالم للجلوس، وأخذ العلبة ودخل مع نرجس لغرفة النوم للتحدث، كانا مدينين لبعض الأشخاص ببعض المال، وكان عمل سالم في المطعم لا يكفي لجمع المال، سَوَّغَ معتذرا بأنها الطريقة الوحيدة المتبقية للكسب السهل على حد قوله، الدعارة..

- أنا آسف نرجس، أنا آسف، ولكنها الطريقة الوحيدة..

بدأت بالبكاء وكانت تشعر بالإنهاك والألم والقَرَف، بدأت التقلصات تزداد بمعدتها وكانت على وشك التقيؤ في أي لحظة..

- لا، سالم.. لا، أرجوك.. أرجوك لا تفعل هذا بي، أنا.. لا أستطيع، لا أستطيع.. أرجوك..

- أرجوك أنتِ أن تتفهّمي، أنا أفعل هذا من أجلِك، من أجلنا نحن الاثنين..

- فَلْنَعُدْ، نعود للوطن، لا بأس، نواجه عائلتي، حين تحدثت مع وردة آخر مرة قالت أن والديّ لم يعودا غاضبين مني، وأنّهما سيقبلان اعتذاري.

- افهمي.. أنا لن أستطيع توفير السعادة والأمان لك كما أفعل هنا، ثم أين سنسكن؟

- في منزل عائلتك، أو عائلتي، أو أحد الأصدقاء، تلك ليست بمشكلة..

- لاااا.. مستحيل... وكأنك لم تفهمي سبب مغادرتنا البلاد أصلا.. نحن هنا أكثر أمانا..

- وكيف تعتقد أنني هنا أكثر أمانا، هذا أسوء ما يحدث لي على الإطلاق..

نعود ونسكن في منزل والديّ، ونبدأ العلاج سويا، نبدأ مجددًا مرة أخرى.

- لا، لا، لا في منزل والديك، ولا في منزل والديّ، عزيزتي، كل الآباء هم لعنة على أولادهم، ومن حسن الحظ أننا لم نرزق بأية أطفال..

أصيبت بنوع من الفزع حين قال أنه سعيدٌ لعدم إنجابهما أية أطفال، هذا الأمر كان يسبب لها الحزنَ على الدوام، كانت تتمنى أن ينتفخ بطنها جراء الامتلاء بكائنٍ صغيرٍ صنيعة حبها هي وسالم...أجهشت بالبكاء بسبب موقفه... ثم توقفت عن البكاء وقالت:

- ماذا؟ ما هذا الأسلوب السخيف في الحديث عن والدي، زهرة توفيت نتيجة حادث، أنت تعلم هذا جَيِّدًا، والحادث لم يكن خطأ والدي، وأخبرتك مرارًا، بأن الشاحنة التي كانت بجانبنا على الطريق هي المتسببة في الحادث، وقد نال سائقها عقابه، ثم إنني أرغب بالإنجاب فعلا، ولن أستسلم، وسأحاول مرارا حتى أنجح..

- أنت لا تفهمين شيئا، لا تزالين صغيرة على إدراك ما يحدث، أنا أعلم كيف أقوم بحمايتك..

أمسكت بالعلبة المغلفة وقامت بفتحها، وكانت تحتوي قميص نوم أحمر اللون، حريريًا، صرخت بوجهه..

- لا، لا أريد البقاء معك، أريد الطلاق، أريد العودة إلى البلاد الآن..

- لن يحدث هذا، سنبقى سويًّا هنا، ولن نغادر حتى تتمكني من العلاج أولا، ثم من تحقيق حلمك بالتمثيل، أنا المسؤول عن سعادتك.

فتحت نرجس عينيها فزعةً.. تلك هي الذكرى الأسوء على الإطلاق، يقال أن أول مرة، هي الأصعب دائما في كل شيء، والدليل أنها وطوال سنوات زواجها، اعتادت الأمر، وإن كان على مضض، كانت الحبوب ملاذها للهرب من الشعور بالوضاعة والمهانة، عمل سالم هذا لم يزدها سوى تعلقا بحبوبها، وبحياتها مع سالم..

نظرت إلى هاتفها، واسترجعت كلمات والدها في المكالمة الأخيرة، أغمضت عينيها وقالت لنفسها: (كيف استسلمت هكذا، طوال هذه المدة، كنت أظن أن الوقت قد تأخر، كل يوم كنت أظن أن ما تبقى لي في هذه الحياة ليس أكثر مما ذهب، كنت يائسة من كل شيء، كيف قدمت نفسي هكذا، فريسة سهلة للموت، أتذكر أمي قالت لي ذات مرة عبر الهاتف بعد وفاة ربيع: (الموت يقطف زهراتي واحدة تلو الأخرى، ليترك حياتي أرضًا قاحلة، أما ربيع فهو الربيع الأخير الذي لن يتكرر). سأعود يا أمي ، سأعود..

نظرت إلى الساعة، وقد شعرت بالضعف والإرهاق والنعاس، وقبل أن تغفو بقليل، عاد سالم من العمل وقد قاربت الساعة الرابعة صباحًا.. تنبَّهت نرجس إلى صوت فتح الباب، ودخوله، ولكنها بقيت مكانها في سريرها، أشعل التلفاز وبقي في غرفة المعيشة، ألقى بثقله على الأريكة لينال القليل من الراحة.. وبعد قرابة النصف ساعة من التفكير، ذهب سالم إلى غرفة النوم حيث نرجس تقاوم النوم بشدة، غير راغبة في شئ سوى رؤية وجه سالم..

- لا تزالين مستيقظة؟ صباح الخير.

- أهلًا.

قالتها بغير اهتمام.. وقد تبددت رغبتها في رؤيته، فيما كان ينظر في عينيها باستفهام...

تجنبت النظر في عينيه مباشرة. وقف مستندًا إلى باب الغرفة، جال بنظره غرفة النوم، مسح شعره الأشقر بباطن كفيه، نظر إليها بحب...

- كيف أنت الآن؟

- بأحسن حال..

خلع رداءه الجلدي الأسود، وجلس بجانبها على حافة السرير وهو يشعر بالقلق والتوتر الشديدين، وقد سيطرا عليه فجأة، كما لو أنه تذكر أمرا ما..

- والنزيف؟

- خفيف...

- متأكدة أنك لا ترغبين بزيارة الطبيب؟..

- لا.. لا أريد..

قالتها وهي تشعر بالسأم والتملل..

- لا تشعرين بأي ألم؟

- امممم... لا... لن أعلم بأية حال إن كانت هناك أية آلام، لن أشعر بها.. لا أعلم إن كان هذا الشيء حسنا أم سيئًا، ربما الاثنان معا..

- لا أريد أن يصيبك أي مكروه...

قالها بصدق. اعتدلت في جلستها وأسندت ظهرها إلى السرير، وابتسمت بسخرية:

- لقد أصابني المكروه منذ أن ارتبطت بك..

يقف سالم ويبتعد عن السرير وقد بدأ يشعر بالحنق..

- كل هذا بسبب أحمد؟

- لا علاقة لأحمد بأي شيء..

- أنا أعلم جَيِّدًا بما يحدث.. تغيرتِ كثيرا..

- نعم.. أحمد غيَّرني كثيرا.. و أتعلم أمرا؟... ليتني عرفته منذ زمن..

- كنت أعلم، كنت أعلم لقد تعمد ذلك، تعمد إبعادك عني، وقمت بتحذيرك مرارًا منه.. لمَ لا تبتعدين عنه ببساطة؟... ألم تكفِيكِ الشجارات التي خضناها بسببه مؤخرا؟!

قالت بانفعال:

- كنت موافقا منذ البداية، لم تعترض، لم تتحدث، لم تقل شيئًا.. لم تكن مباليًا.. بل على العكس كنت سعيدًا بالعلاقة التي جمعتنا به..

- لا مبالاة؟! لأنني أبالي، كنت أشعر بالسعادة والراحة والطمأنينة من أجلك، لأنني أهتم بسعادتك، كنت أراك سعيدة وأنت معه..

قالها وقد احتدت نبرة صوته.

- أحمد مجرد صديق، لا شيء بيننا أكثر من الصداقة، لم يحدث أي شيء بيننا، وأنت تعلم ذلك جَيِّدًا..

- لو كان صديقًا جَيِّدًا كما يدعي، لما سعى إلى إفساد علاقتك بي..

- لم يفعل... لا نزالُ سويًّا وتحدث بعض المشكلات، كما تحدث مع كل الأزواج أحيانا...

- إذن، لا تزالين تحبينني كأول يوم..

قالها وقد هدأ قليلا.

تومئ برأسِها بالإيجاب، وتصمت فهي لم تعد تعلم إن كانت مشاعرها تجاهه كالسابق، فقد شعرت في الفترة الأخيرة بأنه استنفذ كل ما فيها من حياة، متذبذبة بين احتياجها له وبين حبها لوجود أحمد في حياتها، ليست متيقنة إن كانت مشاعرها تجاهه قد انطأفت بالفعل، كانت تشعر بأنها تحبه ما دام بعيدًا عنها، وكلما كان متواجِدًّا معها، كانت تشعر بنفاذ صبرها، ونفاذ حبها، كيف ينتهي الحب بهذه البساطة؟ كانت علاقة بائسة منذ البداية، لم يجمعهما معا سوى الطريق إلى الموت...

يجلس بجانبها على السرير، وقد شعر بالقليل من الندم وزال غضبه تمامًا:

- أنا آسف...

يقولها ويصمت قليلا، ويشعر بالقلق من جديد، يذهبُ إلى دورة المياة، يغسل وجهه محاولة منه لاستعادة حالته الطبيعية، يتناول حبوبه، يبدل ملابسه ويستلقي على سريره، شاردَ الذهن، فيما تلحظ نرجس ازدياد اضطرابه على غير العادة..

- سالم... سالم...

- هاه...

- تبدو متعبًا... حاول أن تنام..

يومئ برأسه إيجابا، ويدير ظهره إلى الجهة الأُخرى محاولًا النوم، لا يعلم سالم أنها اتخذت قرار الرحيل من أمريكا وأنها ستغادر دون علمه، ما كان ليسمح لها بالمغادرة، ربما كان سيتخذ من عدم إكمالها العلاج الذي تَعَهَّدَ به حجة لبقائها، إلا أنه في حقيقة الأمر كان بحاجة لوجودها بجانبه، أخفت الأمر عنه وعن أحمد، الذي ستفاجئه بقرار الرحيل، وستعرض عليه مرافقتها..

أمسكتْ هاتفها المحمول، ونظرت إلى اسم أحمد في قائمة الأسماء، نظرت إلى صورته.. أغمضت عينيها مستذكرة لقاءها الأول به..

في أحد الأيام وأثناء عودتها إلى شقتها بعدما اشترت بعض الحاجيات، يتصادف وجود أحمد واقفًا على باب شقته يهم بالدخول، ولكنه يتوقف فور رؤيتها..

- مرحبا ، أنت زوجة سالم، أليس كذلك؟

- بلى..

وتُكمل طريقها إلى الشقة دون الاهتمام بإجراء أي حديث، تعلم أنه من نفس بلدها، ورأته عدة مرات في أماكن مختلفة؛ المصعد، مغسلة الثياب، المطعم على ناصية الشارع، فهو جارها، وقد رأته عدة مرات يحملق فيها ظنًّا منه أنها لم تنتبه، ولكنها لم تبادر يوما بالكلام معه، أو إلقاء التحية حتى، كانت لا تحب الاختلاط بالغرباء، أو غير الغرباء؛ فهي لا تحب الاختلاط بالغير ببساطة، وكونه من نفس بلدها ليس مسوّغًا للتعارف بالنسبة لها...

تضع الحاجيات أرضًا ريثما تعثر على مفتاحها في حقيبة يدها، يقترب منها أحمد ويبادر بحمل أغراضها..

- لا، شكرا، لا أحتاج إلى المساعدة..

- لا بأس، سأضعها في الداخل.

يدخلان الشقة سويًّا، يضع الأغراض أرضا، ويتجول بنظره في المكان غير المرتب، ويتأمل صور الممثلات المعلقة على الجدران بتنسيق جميل..

- أووه، هذا المكان يبدو مهجورا... أمتأكدة أنكما تسكنان هنا؟

قال بسخرية، فيما تشعر نرجس بشيءٍ من الغضب، والتوتر، ويتصبّب جبينها عرقا...

- إذن، شكرًا على المساعدة، يمكنك الذهاب الآن، فكما ترى لدي الكثير من الأعمال التي أرغب بإنجازها قبل عودة سالم إلى المنزل..

- هل تشعرين بالإعياء؟

فاجأها السؤال، فلم تتوقع استرساله في الحديث معها على الرغم من أنها قد قامت بطرده توًّا..

- لا، أنا بخير، فقط أشعر بالقليل من الصداع، سأذهب لأتناول الدواء..

- وجهك أصفر اللون، وأنتِ شديدة النحول، وتبدين شاحبة، تناولي دواءك وأنا سأعد بعض الشاي..

- أنت جِدًّا وقح، ويبدو أن سالم كان محقًا، عندما طلب مني تجنبك، اخرج من بيتي الآن..

أنهت جملتها الأخيرة، وقد أصيبت بدوارٍ خفيف أفقدها توازنها.. هرع إليها أحمد وقام بمساعدتها للوصول إلى الأريكة.. وأحضر لها كوبًا من الماء..

- أين الدواء؟ قد يساعدك..

- الحقيبة لو سمحت...

تناولت حبوبها وشعرت بالقليل من التحسن على الفور..

- شكرًا لك..

- عفوًا... لن أغادر، سأساعدك في ترتيب أغراض البقالة التي اشتريتِها، ثم سأساعدك بترتيب المكان، قبل عودة سالم، تبدين متعبة جِدًّا..

تبتسم نصف ابتسامة وتستسلم للأمر الواقع؛ فقد كانت منهكة بالفعل، ولا تشعر بأي رغبة في ترتيب الشقة، فقد داومت على المكوث فيها مؤخرًا، ولو لم تكن الثلاجة فارغة تمامًا من المواد الغذائية، لما اضطرت إلى الخروج منها، كان الخروج من المنزل بالنسبة لها في تلك الفترة، نوعًا من العذاب، اضطرارها لرؤية كل هؤلاء الناس في الشارع أو في متجر البقالة، نظرات البعض المحملقة في نحولها واسوداد محيط عينيها، وملاحظة حالة القلق والتوتر الدائم التي تسيطر عليها، وكأن وجهَها يفضحها ويكشف عن أسلوب حياتها الذي اتخذته طوعًا قبل عدة سنوات، ومضت فيه كرها حتى هذه اللحظة...

ويبدأ أحمد بترتيب وتنظيم المكان الذي يعمه الفوضى، دون أي اعتراض منها..

- كنت تلاحقني بنظراتك.. أعلم ذلك..

بادرت بالكلام وبدأ صداعها يزول بالتدريج...

يبتسم أحمد، وكأنه تذكر شيئًا ما..

- أنتِ تشبهين والدتي، ليس شبها بالملامح، بل... لا أعلم كيف أصف ذلك، ولكنك تذكرينني بها..

وبعد لحظات من الصمت...

- شكرًا لأنك قمت بمساعدتي، سأحضر بعض الشاي..

- لا، لا... ابقي في مكانك سأنهي العمل ثم نشرب الشاي سويًّا..

- سأساعدك إذن، لقد تحسنت، والصداع زال تماما..

يتشاركا ترتيب الشقة فيما يكملان حديثهما، وجو من الألفة يطغى على الأجواء..

- إذن... سالم قام بتحذيرك مني، ولكن لماذا؟ و.. ماذا قال عني أيضا؟

أنهت نرجس ترتيب ووضع الأرائك في أماكنها، تناولت قطع الملابس التي تناثرت على الأرض، وضعتها في سلة الغسيل، وقامت بإخفاء رداء الخادمة الفرنسية التنكري كبير المقاس واضعة إياه بين الملابس الأخرى، خوفًا من أن يلاحظه أحمد.

- لا شيء مهم، فقط عن كونك زميلا له في المطعم الذي يعمل به.. قال أنكما لم تتحدثا كثيرًا، ولكن -وكما يقال- الابتعاد عن الغرباء أفضل..

- امممم.. ولكنني جار..

- إذن، أهلًا وسهلًا بك أيها الجار...

- ومن نفس بلدك..

- أهلًا وسهلًا..

- ألا تشعرين بالحنين؟

وضعت المكنسة التي كانت بيدها على الأرض.. ونظرت إلى النافذة وقد اقترب مغيب الشمس..

- لا أعلم.. أنا هنا منذ سبع سنوات، ولا أشعر بمرور الوقت، وكأنني هنا منذ الأزل، الحنين؟... كم أرغب بالشعور بالحنين... ولكنني عاجزة تمامًا عن الشعور به...

أنهى أحمد ترتيب المواد الغذائية في الثلاجة، وقام بترتيب المعلبات داخل خزانة المطبخ المخصصة لهذا الغرض، أمسك بخرقة مبلولة ومسح أسطح الخزائن وطاولة الطعام، حاول إخفاء توتُّره بإشغال نفسه بأعمال التنظيف..

- تأخر سالم..

- يتأخر كلَّ ليلة؛ فلديه عمل آخر يقوم به...

- أين؟

قالها بلهفةٍ مبالغٍ فيها.

- الملهى الليلي؛ على قرابة شارعين، تعرفه أكيدًا؛ فهو الوحيد الموجود في المنطقة..

- آه، نعم.. رأيته هناك عدة مرات، ولكنني لم أكن أعلم أنه يعمل فيه بصفة دائمة..

شعرت نرجس بالقليل من التوتر والترقب...

- إذن، تعلم ماهي طبيعة عمله؟

أحس أحمد توترَها، وكأنه أخطأ بقول ما قال، وقال متداركا:

- لا، أبدًا، لا أعلم... في الحقيقة أنا عادة لا أذهب كثيرا... والمكان - كما تعلمين- كبيرٌ ومزدحمٌ على الدوام.... وأنا لم أَرَ سالمًا سوى

مرتين هناك، وعادة عندما أذهب لا أكون وحيدا... و.... كما تعلمين...كيف تصير الأمور...

افتعل ابتسامة باردة وقال:

- لم أره يومًا بصحبة نساء.

استمرت نرجس بالنظر إليه بريبة وحذر...

- ولكن لماذا تسأل؟ هل هناك مشكلة ما في عمل سالم؟

- لا، لا، أبدا... إذن... كيف تسير الأمور بينكما؟

- ليست جيدة...

قال بثقة مبالغ فيها:

- شعرت بذلك..

- حقا، كيف؟

- بدا لي سالم في المرات القليلة التي تحادثنا بها، حزينًا، بائسًا..

قالت نرجس وقد بدا عليها التصديق:

- هذا سيئ..

- نعم، سيئ جِدًّا..

ينهيان ترتيب المكان ويجلسان إلى طاولة الطعام بعدما قامت نرجس بإعداد كوبين من الشاي...

- و أنت؟ لماذا قدمت إلى هنا، ماذا تريد من الحياة؟

- لا شيء، سوى العيش بسلام، على طبيعتي...

- أخبرني بالقصة كاملة..

- لا قصة... غادرت مزل عائلتي دون إخبارهم...

- هاه.... حقًّا؟ كما فعلت تماما، ولكن أختي وردة كانت تعلم بمخطط مغادرتي ، وقد قامت بإخبارهم بعد ذلك، تقول وردة أنهما ليسا غاضبين مني.. فقط يتمنون لي الأفضل، بل أن والدي سعيد بابتعادي عن المنزل، وذلك لسوء ما حدث بعد رحيلي من أمور، كما أنه سعيد بزواجي، فكان أكثر ما يقلقه هو عدم زواجي، أحادث أمي عبر برامج المحادثة الإلكترونية ولكن ليس كثيرا.. توقفتُ عن ذلك منذ فترة، واكتفيتُ بالرسائل النصية.

أما والدي، فهو شارد الذهن دائما، صامتا، متعبا، مستسلما، هكذا أذكره قبل المغادرة، تقول وردة أن حالته ازدادت سوءًا بعد التقاعد، ولم يحادثني ولا مرة، فقط كان يرسل لي أمنياته بالسعادة عبر أمي، و أختي. وأنت؟ ألم تحاول التواصل مع عائلتك منذ مغادرتك؟

- لم أجرؤ... أنا شاب... يمكنك القول أنه... من الصعب الشعور بالتعاطف معه..

- لماذا؟ ما كان سبب مغادرتك؟

- امممم... تستطيعين القول، أنهم لم يتفهَّموا حريتي في اختيار ما أرغب أن أكون في الحياة..

ترتشف القليل من الشاي وتتأمل ملامح وجهه...

- لم أفهم، اعذرني..

يصمت قليلًا.. وقد بدا عليه التوتر..

- أنا أحب تصميم الأزياء، و... ذلك الشيء لم يعجبهم.. فسافرت إلى هنا حتى أقوم بالعمل الذي أحب..

- هذا غريب..

- أرأيتِ؟... حتى أنت تعتقدين أنه اختيار غريب..

- لا... لم أقصد ذلك.. أقصد أنني أنا أيضا غادرت لسبب مماثل، عدا زواجي بسالم... فأنا كنت أحلُم منذ أن كنت صغيرة بالتمثيل، وسافرت إلى هنا للاشتراك بالبرنامج الخاص بالموهوبين، وخاصة وأن الاشتراك متاح للجميع من كل مكان...

- أووووه... إذن، أنت ممثلة..

- لم يحدث بعد.. لم أوفَّق إلى الآن..

- لماذا؟ ماذا حدث؟

تصمت قليلا، تنظر عبر النافذة، وتلمع عيناها...

- أمور كثيرة حدثت، تستطيع القول أنني فشلت تمامًا... كنت أظن أنني سأنجح، كنت أحلم بتلك اللحظات، ليالي طويلة تدربت على القيام بالمشاهد التمثيلية، شخصيات عديدة قمت بتقمصها، ولكن... لم أعتقد أنني سأفشل في تجارب الأداء، وأنني لن أتمكن من حفظ نص كامل، أو أنني سأتغيب عن مواقع التصوير، تلك مهنة متعبة وتحتاج إلى قدر كبير من الاجتهاد والتركيز، وهذا هو أكثر ما أفتقد...

- هذا مؤسفٌ حقًّا.. ولكن إن كنتِ مهتمة، سأتكلم مع المسؤول عن العارضات في الشركة التي أعمل بها، ربما تصبحين عارضة أزياء..

- حقا... إذن، لديك عمل آخر غير العمل في المطعم؟

- ليس تقريبا، أرسم بعض التصاميم وأقوم بإرسالها لإحدى الشركات وأتقاضى الثمن... وهكذا..

- عارضة أزياء؟

- نعم، الكثير من الممثلات بدأن مسيرتهن المهنية كعارضات أزياء، عليك بطرق جميع الأبواب، إن رغبتِ فعلا بالنجاح، الاستسلام لا يؤدي إلا إلى الفشل ثم الندم.. كما أنك جميلة.. طويلة ونحيلة جِدًّا... أنت بالفعل تبدين كعارضات الأزياء.

تنظر إليه بامتنان، وقد تجدد حُلْمها القديم، تبتسم شاردة الذهن، ثم تعاود النظر إليه وقد نجح بإثارة اهتمامها:

- ولكن تصميم الأزياء مهنة ليست سيئة إلى هذا الحد، فأغلب مصممي الأزياء هم من الذكور، لا أفهم عدم تقبل عائلتك لتلك الفكرة؟

توتر أحمد ، وأخذ يهز رجله اليمنى، صمت قليلا.... ثم أكمل حديثه..

- حسنًا، سأشرح لك قليلا... لم أكن مجتهدًا في دراستي، وكنت أتغيَّب عن معظم الفصول، إلى أن تم طردي... وهذا الأمر أزعج والديَّ بشدة، حتى إن والدتي لم تستطع التعاطف معي، فقد كان والدي يلقي باللوم عليها، وكان ينعتها بكلمات مفادها أنها لو اهتمت بتربيتي أكثر من ذلك لما تعرضت للفشل، أو لما تعرضتْ هي للفشل؛ ففشلُ الأبناء كما تعلمين هو امتداد لفشل الأمهات، هكذا كان يقول والدي، رغم أن لي شقيقين يكبراني بعدة أعوام، كان كلاهما متفوقًا دراسيا؛ أحدهما يعمل الآن طبيبا، وأما الآخر فقد كان محاميًا.

لديهما ابنان بإمكانهما الفخر بنجاحهما، إلا أن الحقيقة هي أن فشلي لم يجلب العار لوالدي ووالدتي فحسب، بل لكل العائلة كما يبدو، أخبرتهم برغبتي في عدم إكمال الدراسة، وبأنني سأصبح مصمّما للأزياء النسائية،

ولكنهم لم يتفهموا الأمر، لم يرق لهم رؤيتي أرسم الفساتين النسائية، أو أن أستعير بعض قطع الملابس الخاصة بوالدتي، أو الاحتفاظ ببعض الدمى الخاصة بألعاب الفتيات..... امممم، لا... لم يكن أمامي أي حل سوى السفر...

- ألم تحاول إقناع والدتك؟

- والدتي..... كانت غائبة أثناء تواجدي، حاضرة أثناء مغيبي... وددت لو تفهمت الأمر، إلا أنني كنت سببًا رئيسًا في إفساد علاقتها بوالدي، و... وبعائلتها أيضا.... أعتقد أنها كانت مترددة، حسنًا... كنت أشعر أحيانا بنظرات ملؤها العاطفة تجاهي، إلا أنها ربما كانت تشعر بالغضب مني وعليّ في الوقت ذاته، وربما كانت بالفعل تلوم نفسها على فشلي... لا أعلم حقيقة، ولكن شعور النبذ كان مؤلما حقا... و... أرجوك لا أريد الحديث في هذا الموضوع.

- أستطيع تخيُّل كم هو مؤلم شعور الإقصاء والنبذ لمجرد الاختلاف.. شكرا لأنك قمت بمساعدتي، وهل كنت تساعد والدتك في ترتيب المنزل؟

- نعم... كل يوم..

- تبدو ذكرى مؤلمة...

- أنا فقط أشتاق لها.. آه، تذكرت... لديك شال وردي اللون بخطوط أفقية زرقاء وأخرى عامودية حمراء تتقاطع فيما بينها لتشكل مربعات كبيرة الحجم...

- نعم، بالفعل وصفك دقيق... ما به؟

- لدى أمي واحدٌ مثله، ربما... أكون رأيتك ترتدينه؛ فارتبطت ذكراها برؤيتك...

- ممكن جِدًّا، أحب هذا الشال، إنه خفيف وناعم على الرقبة.

- كانت أمي تضعه على رأسها.

- امممممممم..

ينظر إلى الطاولة ويبتسم، ثم ينظر إليها...

- ماذا؟

- لا شيء... سأضعه على رأسي يوما ما...

- امممممممم..

تضحك بدورها، وترجع ظهرها إلى الوراء..

- ماذا؟

- ولكنك ستصبحين ممثلة، لا يتفق الحجاب والتمثيل، أم ماذا؟

- ربما بعد مرحلة التمثيل...

- امممم غريب جِدًّا... أقصد سيرى الجميع شعرك، ثم ستقومين بتغطيته، ما المغزى؟

- امممم، سأخبرك... أنا أعتقد أن مهنة التمثيل مهنةٌ مهمةٌ جِدًّا، وهي ليست سهلة أبدًا، إذ يتحتم على الممثلة أن تتخلى عن بعض الأمور في حياتها من سلوكيات مثلا مقابل تقديم أدوار للمتعة والفائدة...

- امممم... متعة وفائدة، لم أفهم صراحة..

- إن القصص التي تعرض على شاشات السينما، هي حيوات و خبرات وإن كانت خيالية، نتابعها ونتعلم منها، ربما نود أن نصبح مثلها، أو ربما

نتجنب أن نكون مثلها، فيلم واحد من هذه الأفلام هو اختصار لحياة كاملة بكل ما تحمل من دروس وعبر في مدة لا تتجاوز الساعتين تقريبا..

- ولكن ليست كل الأفلام ذات فائدة، البعض يشجع على العنف، والبعض الآخر على الإدمان، عدا أفلام الخيال ومصاصي الدماء.

- بالطبع، بالطبع... فعالم السينما هو عالم كبير وواسع كدنيانا، يحمل الحسن والسيئ، من المهم على الفنان الحقيقي اختيار الدور الجيد الذي يحمل رسالة هادفة...

- كلام جميل، ولكنني لا أعتقد أنه سهل التطبيق، فكثيرا ما نسمع عن تنازلات أخلاقية من هنا وهناك للحصول على أدوار معينة مثلا..

- لذلك قلت لك في بداية كلامي عن هذا الموضوع بأنها مهنة ليست سهلة على الإطلاق، كما قلت أن الممثل يضطر في بعض الأحيان للتنازل عن أمور مهمة في حياته في مقابل أن يكون جزءا من هذا العالم، وليحافظ على بقائه فيه...

- امممم، وما علاقة هذا الكلام بغطاء الرأس؟

- أحد هذه التنازلات قد يكون غطاء الرأس مثلا.

- هل كنت محجبة؟

- لا، قط...

- إن لم ترتدي الحجاب قبلا، لمَ سترتدينه فيما بعد؟

- حسنًا، أنا لم أَرْتَدِي الحجاب لأنني لم أكن أعتقد أنني مستعدة له، أقصد أن نظرتي للحجاب تختلف عن نظرة أغلب الناس، فأنا أظن أن

الحجاب هو مظهر لا بُدّ أن يدل على جوهرٍ قويٍّ وناجح ،... لا بُدَّ أن أحقق هذا النجاح حتى أصل إلى المرحلة التي ينعكس بها ما بداخلي على خارجي..

- وهذا سيتحقق بامتهان التمثيل؟ (يضحك عاليا).

- لا تضحك، نعم، سيتحقق بتحقيق النجاح بأي مجال كان، وأنا اخترت التمثيل.

- هههههه، لا أعلم، تبدو أفكارك غريبة نوعًا ما...

- ليست غريبة.... اسمع، في مجتمعنا، يستخدم الحجاب لغرضٍ مختلفٍ تمامًا عن الغرض الحقيقي منه...

يضع يده على خده ويميل بجذعه نحو الطاولة..

- و.... ما الغرض الحقيقي منه إذن؟

- في مجتمعي تحتجب النساء والفتيات للاختفاء عن أعين الناس، لأن المجتمع ظالم يضع باللوم على المرأة دائمًا، يعتبرها المسؤولة عن فتنة الرجال، وبالتالي لا بد من حجبها عن أعينهن، المرأة فتنة، المرأة شر، المرأة هي الشيطان بعينه، وهذا خاطئ، أنا أريد أن أضع الحجاب كي أساهم في خدمة مجتمعي بالحفاظ عليه بالتعاون مع الرجل، أن أكون مصدرَ قوةٍ مشاركًا في بناء المجتمع، وليس من موقع ضعفٍ واختباءٍ واستكانةٍ.

- هذا جيد، ولكن لا علاقة له بالنجاح في العمل، كل امرأة ترتدي حجابًا هي مشاركة بالفعل في الحفاظ على مجتمعها.

- نعم ولكن يختلف الأمر لو كانت تشعر أنه اختيارها وأنها ترتديه من مبدأ القوة...

- الكثيرات ترتدينه باختيارهن، وتعتقدن بأنهن قويات بما فيه الكفاية، كما أن القوة يفترض أن تكون قوة إيمانية، أم ماذا؟

- صحيح، ولكن المرأة الناجحة -أو العنصر الفعّال في المجتمع- لا تهتم لأراء الناس في مظهرها ولا تهتم لأن تكون جميلة أو لا، لأن أراء الناس لا تهمها، وبالتالي سترتدي ما يحلو لها دون الاكتراث برأي أحد. وهذه قوة بالطبع.

- ولكن أليس هذا ما يحققه الإيمان؟

- نعم، ولكن لا فائدة للمجتمع من أداء العبادات الظاهرية إن كان الداخل أسود..

- هههههههههههههه..

- لماذا تضحك الآن؟

- صدقيني، لم أفهم المغزى من كلامك... ولكن، من قال أن العبادات الظاهرية لا تساهم في خدمة المجتمع؟ الصلاة مع الجماعة، الصدقة، الصوم وكل المظاهر والطقوس التي ترافقه، من عادات تساهم في ترابط المجتمع... وعلى الرغم من أنني مقصر في هذا الجانب، إلا أنني مقتنع به تمام الاقتناع.

- لم أستطع توصيل فكرتي إليك..

- امممم، دعك من كل هذا الكلام، إن شعرتِ برغبة في ارتداء الحجاب ارتديه، إنها لحظة إيمان وتصديق وقرار، لا علاقة لها بأي شيء آخر غير الإيمان والتصديق، ليس عليك أن تكوني امرأة ناجحة لتحقيق ذاتك أولا ثم تحقيق أداء عباداتك، ثم ما تعريفك للنجاح أصلا؟ هل هو أمر مرتبط بالعمل المهني حصرا؟ أم بتحقيق الشهرة؟ أم بنيل الجوائز أيا كانت؟

كل تلك الأمور التي تحدثت عنها وجعلتها قالبا لك هي أمور هامشية، صدقيني تكمن قيمتك في كونك إنسانة، هكذا فقط... إنسانة، ولا قيمة أكبر أو أكثر أهمية من هذا الأمر، ويبدأ تحقيق الذات من أن تشعري بأهمية وجودك... من بداية يومك... من كل صباح، بأن تخوضي هذا اليوم واليوم الذي يليه بقوة وإقدام، متسلحة بالأخلاق التي جاء بها الدين، إنها رحلة... ما الحياة سوى رحلة تقودنا في النهاية إلى العالم الحقيقي، وليس عليك في هذه الرحلة سوى الاستمتاع بها، ولا يكون الاستمتاع كاملًا إلا بتقديم العون والمساندة للآخرين، أحد أشكال هذه المساندة هو الحجاب...

- كلامك جميل...

- صدقيني، أمور صغيرة تفعلينها لمن حولك تحدث أكبرَ الأثر في حياتهم، أكثر أهمية من الحصول على الجوائز ونيل الشهرة..

- صحيح، أتّفق معك بأن الجوائز ليست غاية بحد ذاتها، هي محفِّزات لا أكثر، والشهرة هي أمر تحصيل حاصل في بعض المهن، وليس هدفًا بحد ذاته أيضًا.. المهم أن يجد المرء نفسه في أي مجال..

- بل المهم أن يعيش ذاته، ويحافظ عليها.. أن يعيش يومه، ولا ينظر كثيرًا للغد، وإلا انشغل بالتخطيط للغد عن عيش اليوم الحاضر.. وخسر كلاهما..

- أتخيل هذا... شكرًا على مساعدتك لي..

تنظر نرجس إلى ساعة يدها:

- تأخر سالم..

- نعم، تأخر، ولكن.... هل تمضين كل وقتك بالنظر إلى الساعة كل بضع ثوان؟ ماذا تفعلين بيومك... أقصد غير انتظار سالم، والنظر عبر النافذة إلى الخارج طوال الوقت؟

كان ذاك السؤال هو الحلقة المفقودة التي لم تكن تجدُها في دوّامة الحياة التي عاشتها مع سالم طوال تلك السنوات، ماذا تفعل في حياتها سوى الانتظار....

(عَوْدَة)

صباح اليوم التالي استيقظت نرجس وهي تشعر بالكثيرِ من النشاط والحيوية و السعادة، قرار العودة... نعم... كيف استطاعتْ تأجيل سعادتها عشر سنوات؟ كيف استطاعت انتظار مرور كل هذا الوقت؟ لم تكن تعلم أنّها ومنذ أن غادرت البلاد غادرتها السعادة مودعة ، كان عليها استعادتها بأي ثمن كان...

قامتْ بترتيب الشقة، وقد دأبت على ترتيبها بانتظام منذ أن ساعدها أحمد بترتيبها أول مرةٍ، تناولت فطورًا صحيًّا على مضض، متجاهلة شعورها بالغثيان وفقدان الشهية، خرجت لممارسة رياضة الركض في المنطقة المحيطة بعمارتِها التي تسكن، عادت إلى الشقة وهي تشعر بالكثير من الامتنان، فهي لا تزالُ على قيد الحياة، يوم آخر بعد.. مما يعني أن الفرصة لا تزالُ أمامها متاحة للبدءِ من جديد، وتذكرت أحمد الذي قال لها ذات مرة: (العالم لا يتغيّر من تلقاء نفسه، نحن نتغير، فتستجيب الطبيعة لنا، وتتغير الأقدار لتلائم حياتنا الجديدة)....

تناولت حبوبَها كالمعتاد وجلست على الشرفة في انتظار شروق الشمس كما كانت تفعل كل صباح مع أختها وردة فيما مضى، رَتَّبَتْ حقيبة يدها، لم تكن تنوي أخذ أي من حاجياتها سوى أقل القليل، حرصًا على عدم علم سالم برحيلها إلا بعد مغادرتها، تناولت كوبًا من الشاي، فتحتْ حاسوبها المحمول، واستأنفت كتابة مذكراتها اليومية كما طلبت منها وردة قبل

المغادرة، وهي العادةُ التي لازمتها منذ اليوم الأول من سفرها، وعلى الرغم من أن ما كان يحدث لها لم يكن بالكثير، إلا أنها كانت طريقةً فعالةً للتنفيس عن حزنها وألمها وغضبها من سالم في أحيان كثيرة، وكانت تقوم بإرسالها بانتظام إلى وردة عبر بريدِها الإلكتروني؟

كانت تتوقَّف بعض الأيام، عن الكتابة والإرسال وربما انقطعت عنها عدة مرات ولفترات طويلة، إلا أنها كانت دومًا تعود للصلةِ الوحيدةِ التي باتت تربطها بوردة، ربما بسبب شعورها بالذنب تجاهها، فما كان عليها التخلي عنها والمغادرة هكذا بسهولة تاركة إياها في مواجهةِ كل تلك الآلام التي حلت بالعائلة...

يوم طويل في انتظار انتهائِه، فعلت كل شيءٍ حتى لا تشعر ببطءِ مرور الوقت، غريب هو الوقت، يطول ويقصر تبعًا للحالة النفسية التي نعيشها، غفت... ثم استيقظت وهي تنظر إلى شاشة التلفاز وفيما يبدو خبر عاجل جديد عن الشرق الأوسط...

إحدى الجماعات الإرهابية التي تستولي على بعض المناطق المجاورة لبلدها تعلن عن مسؤوليتها عن تفجيرٍ ما، وقع صباح اليوم في إحدى الأحياء المكتظة بالسكان، هذا ما فهمته نرجس من الصور المتداولة في الخبر نفسه، تمعن النظر في الشاشة، رجال متشابهون في طريقة اللباس والهيئة الخارجية، تختلف أطوالهم وأحجامهم، وربما أعمارهم، إلا أنهم اتفقوا على فكرةٍ واحدة، وهي أنهم رعاة هذه الأرض وحماتها الموكَّلون عليها من قبل الله... لماذا؟ ما الذي يجعلهم يعتقدون أنهم أفضل من الآخرين؟

إنَّهُ التكبر... نعم بالطبع، التكبر.. وهي الصفةُ التي اتصف بها الشيطانُ نفسُه، حين رفض السجود لآدم -عليه السلام- معللًا ذلك بأنه أفضل منه، خلق من نار فيما خلق آدم –عليه السلام- من طين، إنّهم كذلك بالطبع حفدة الشيطان وأولياؤه، ولا يمكن أن يكونوا شيئًا آخر غير ذلك، هذا هو كبيرهم يتحدث بثقة، ربما لأنه يخفي وجهه، أو ربما وَهْمُ الأفضلية يسيطر عليه (ولكن... ما هذا الشيء الذي يتدلى من يده؟) قالت نرجس وقد اعتدلت في جلستها: (هذه هي الساعة... تشبهها؟ لا، هي نفسها... لا... لا... ربما هي أخرى مشابهة لها)..

عادت للاستلقاء على الأريكة، لم ترغب بالتفكير طويلا، أطفأت التلفاز وقد حل الليل... ولم يبقَ سوى ساعات قليلة على عودة سالم ورؤيته للمرة الأخيرة...

مرة أخرى فكّرت بعلاقتهما ولكن على نحو مختلف، ماذا إن كانت لا تزالُ تحبه بالفعل؟ ماذا إن كانا مرتبطين بقوة أكبر من الحب؟ أكبر من الزواج، أكبر من عشر سنوات من العيش سويًّا، قوة خفية، تكبّلُها بأغلال المتعة والألم، ثم ماذا عن القدر؟ ربما لا شيء جمعها بسالم سوى تجرع الموت ببطءٍ، كانت فكرة بقائها مع سالم تخيفها بالفعل، بقدر ما كانت فكرة الموت نفسها مخيفة بالنسبة لها، هل يتساوى الحب والموت معا؟ أليس الحب طريقا مختصرًا للموت؟

ألم متوسط الشدة شعرت به، أصابها دوارٌ خفيف، تذكرت كيف فقدت طفلها قبل سنتين، كان أكثر ما أرادت الحصول عليه من الحياة، لم يكن سالم موافقًا على فكرة الإنجاب؛ كان يرى أن الوقت غير مناسبٍ، إذ كان

يعتقد أن عليها أن تتعافى أولا، حتى تتمكن من إنجاب طفلٍ سليمٍ، كانت نرجس تُوافقه بداية بفكرة تأجيل الإنجاب، إلا أنها ضاقت ذرعًا بفشلها المتواصل في العلاج، وعاطفة الأمومة كانت العاطفة الوحيدة التي استولت عليها تلك الأيام، حتى أصبحت هاجسًا يؤرقها...

شيء أخير عليها فعله قبل المغادرة، لقاء أحمد وإخباره بقرار رحيلها صباحًا، وربما كانت الفرصة مناسبةً ليطلب منها الرحيل معها حتى يقوما ببدء حياة جديدة في البلاد، تناولت هاتفها المحمول وأدخلت الرقم..

- أحمد.. مساء الخير، كيفك؟

- بخير... أهلا نرجس، ما الأخبار؟

- بخير، أين أنت؟

- لماذا؟

- امممم، لا شيء، أخبرني سالم أنه سيراك الليلة في النادي الليلي، هل لا يزال سالم معك؟

- نعم، صحيح.. تشاجرنا قليلا كالأمس، قبل أن يغادر المكان، هل تحتاجين لشيء؟

- لا، لا... تبدو مشغولا...

- نعم... هل هناك شيء ما؟

- هل أستطيع رؤيتك اليوم، ولكن دون علم سالم؟

- امممم، غدا صباحا... أنا مشغول اليوم...

- إذن، سأغلق الآن، وسأهاتفك في الصباح..

كانت تحتاج فقط للتأكد من وجوده في النادي للذهاب إليه، لم تكن ترغب بإخباره عن قرارِ رحيلها بوقت أبكر من ذلك حتى لا يقوم بالتأثير على قرارِها الذي اتخذته بمفردها ولن تتراجع عنه، فقد كانت سترحلُ معه أو بدونه، غير أنها كانت واثقةً بأنه سيسعد بهذا القرار وبهذه الخطوة، فكما كان يقول لها دومًا: (خطوة واحدة على الإنسان أن يخطوها للنجاح، خطوة واحدة فقط، ثم الطريق تصير ممهدة، فاتحة ذراعيها، خالية من أية عوائق، تمامًا كما هي العلاقة مع الله –سبحانه-، التقرب إليه لا يزيدك إلا قربا منه).

وهي كانت تريد النجاح، في الهروب من حياتها للمرة الثانية، ولكن هذه المرة لن تهرب مع سالم، بل من سالم نفسه...

وفي حقيقة الأمر، لا يهمها إن رافقها أحمد أو إن لم يرافقْها، هي تعلم أن فكرة العودة قد لا تكون بتلك الأهمية بالنسبة إلى أحمد، فقد قام بمشاركة أحدهم بمشروع تجاري جديد كما أخبرها مؤخرًا، كما أنها ليست متأكدةً تمامًا من مشاعرها الحقيقية نحوه، مترددة، مذبذبة، أحيانًا تشعر بالكثير من الحب تجاهه لدرجة استعدادها للتخلي عن كل شيءٍ للبقاء معه، وأحيانًا أخرى يستولي على مشاعرها حبُّ سالم من جديد، تعلم أنه صديق مقرّب، وتعلم أنهما تشاركا الكثير من الحياة، وتعلم أنه أسدى إليها الكثير من النصائح التي أعانتها على قضاء الأوقات الصعبة.

تعلم أن وجوده في حياتها في الفترة الأخيرة كان أكبر من وجود سالم، ولكنها تعلم أيضًا، أنه لم يحل محله ولا لحظة واحدة، وتعلم جَيِّدًا، أن مكان سالم في قلبها سيبقى خاليًا فارغًا، وعلى الرغم من إعرابه عن غيرته من العلاقة التي تجمعها بسالم، وعلى الرغم من أنه قد قالها صراحة فيما

مضى، بل وطلب منها الابتعاد عن سالم، إلا أنه لن يكون كافيًا، لتكمل حياتها معه هنا مثلا، ستعود... إن رافقها عاشت معه وربما تزوجته، وإن رفض العودة، ستعود بمفردها، ستشتاق له... سيترك فراغًا كبيرًا... ولكنها حتمًا ستستعيد حياتها السابقة، كان هذا كافيا بالنسبة لها، فقد تعلمت الدرس جَيِّدًا، ولن ترهن حياتها مرة أخرى لرجل آخر....

ترتدي نرجس فستانًا أحمر اللون مكشوف الكتفين، يطول إلى أسفل الركبتين، تبدو بأبهى حلة، تضع طلاء شفاه أحمر اللون، وتفرد شعرها جَيِّدًا كما لم يكن يوما مُجَعَّدا، تماما كما قام أحمد بإسدائها نصيحة تغيير مظهرها الصبياني الذي كانت متمسكة به؛ فاسبدلت بناطيل الجينز على أشكالها وقصاتها المختلفة، بفساتين وأدوات زينة، نظرت إلى نفسها بالمرآة؛ بدت للحظة كامرأة ناضجة واثقة من قرارها...

تصل نرجس إلى النادي الليلي، إنها المرة الأولى التي تذهب بها إلى هذا المكان، لم يسبق لها القدوم إليه، لم تكن تحب الضوضاء، ولا الأماكن المزدحمة، ولا الموسيقى الصاخبة التي كانت تسمع هناك على الدوام، عدا أنها كانت تتجنب رؤية سالم أثناء العمل، فعمله هذا كان أكثر ما يزعجها ويثير اشمئزازها..

بخطوات بطيئة ثابتة دخلت المكان، وكانت تتحاشى النظر إلى الموجودين، رجالا ونساءً يظهرون من أجسادهم أكثر مما يخفون، وبعض الأجسام تلاصقت ببعضها البعض، والبعض الآخر يتمايل ويتقافز على وقع الموسيقى الصاخبة، اكتظاظ جنوني غير مسوَّغ بالنسبة لها، أسرعت إلى أحد الموظفين اختصارا للوقت، وقامت بسؤاله عن أحمد، أخبرها أنه في

أحد الغرف مشغول بتقديم خدمة لأحد الزبائن، وحين أخبرته نرجس بأنها ستقوم بانتظاره ريثما ينتهي، أشار لها إلى مكان تواجده، فسارعت إليه...

لم تكن تعلم أن أحمد أيضا يعمل هنا في هذا المكان مع سالم، كانت تظن أنه متواجدٌ هنا كأحد الزبائن، إذن، هذا هو عمله الآخر الذي امتهنه بعدما ترك العمل في المطعم الذي يعمل به سالم قبل سنة ونصف، اختلط عليها الأمر قليلا، مشت في الممرّ الضيق الذي يصل الغرف بعضها ببعض، تأملت جدران الممرّ المكسوّ بورقٍ أحمر اللون نُقشت عليه فروع وأوراق نباتية ذهبية اللون، أغصانها مموَّجة، تثخن وترتقق صعودًا نزولًا، لوهلة شعرت بأنها ستمتد لتلتف حول نحرها من كل جانب، كما شعرت وكأنها كلما مشت أكثر كلما ضاقت الجدران أكثر، وكأنها على وشك أن تطبق عليها في نهاية الأمر، وتلك الإنارة الخافته الحمراء التي تضيء جوانب الممرّ، كانت تزيد من اضطرابها.. لم تكن تشعر بالارتياح قط..

ماذا يعمل أحمد في مكان كهذا؟ تساءلت بحيرة، لا بد أنه مشغول مع إحدى الفتيات، طوال ثلاث سنوات من معرفتها بأحمد لم تفكر فيه بسوء قط، كان مثاليا، في كل شيء... شجعها على استعادت إيمانها، فاستعادت حياتها بالتدريج، كان شابًّا صالحا، متفائلا، يحب الحياة، يضحك كثيرًا، سعيدًا أغلب الوقت، ينشر السعادة من حوله بابتسامته العريضة، وكان سببًا في تغيير نظرتها للحياة...

كانت تشعر بوجود خطبٍ ما، أغمضت عينيها لثوانٍ معدودة، تذكرت اللقاء الذي جمعها بأحمد وسالم في المرة الأولى في المطعم الذي كانا يعملان به سويًّا فيما مضى، كانوا يجلسون ثلاثتهم إلى الطاولة متجنبين النظر في

أعين بعضهم البعض، كان سالم الأكثر انزعاجا، لم يعجبه التقرب الحاصل بين نرجس وأحمد، بقي صامتا طوال الوقت، وكان ينظر إلى نرجس غاضبًا معاتبًا، أما أحمد فقد كان مرتبكًا، متوترًا، ينظر إلى سالم بهدوء وخجل ووقار، تحدث يومها في أمور متنوعة، بدأ كلامه قائلا:

(إنها لصدفة جميلة أن نلتقي ثلاثتنا هنا أشعر بأن الله يحبني فيها نحن هنا اليوم معا، الله يحبنا جميعًا، هذا هو القدر، أن نلتقي، يجب أن نكون ممتنين لهذا الحدث، ليس علينا مقاومته، ليس علينا مقاومة حقيقتنا، علينا أن نتقبَّلَ ذواتنا، الله يريد ذلك، يريد لنا السعادة).

لم ينظر في عيني نرجس بشكل مباشر قط ذلك اليوم، ظنت يومها أنه كان خجلًا من لقائه بها المتعدد دون علم سالم، إلا أنه أكمل بقول:

(أنا سأكون صديقا لنرجس، سأعتني بها كما تفعل، حين تكون غائبًا، سأكون أنا).

بدا كلامًا لطيفًا في ظاهره، رغم انزعاجها من عدم نظره إليها، وإهماله لها، وعلى الرغم من صمت سالم المطبق إلا أن أحمد واصل حديثه في مواضيع شتى، كان يتكلم ولا ينتظر تعليقا أو رَدًّا، كان يريد الكلام لا أكثر، كان مرتبكًا، وسعيدًا في الوقت عينه، تحدث عن صداقة وصفها بثلاثية تجمعهم الثلاثة، في تصوُّر منه مستقبلي، برباط من المحبة والاهتمام، تحدث عن أمور يستطيعون فعلها الثلاثة معا، حتى أنه وبكل جرأة قال أنه قد ينتقل للعيش معهما بنفس الشقة مشاركا إيّاهما دفع الإيجار.

وحين انتهى من الكلام، اعتذر سالم وَهَمَّ بالمغادرة، وأصيب أحمد بشيءٍ من خيبة الأمل، لحقت به نرجس وكان سالم يشعر بالحنق والغضب،

قال أنه لن يمنعها من رؤيته، على الرغم من تحذيراته السابقة، وبأنه سيحترم قرارها باتخاذه صديقًا لها سواء أثناء وجوده أم أثناء غيابه، إلا أنه لن يكون طرفا في هذه العلاقة، لم تشعر يومها إلا بالاستغراب من موقفه، وعادت إلى أحمد الذي كان يشعر بالإحباط والأسى، أخبرته بما دار بينها وبين سالم من حوار، فقال بلكنة تحمل الغصة بأنه لا يستطيع خيانته، وبأن علاقته بها ستكون غريبة وخاطئة دون وجود سالم، لم يعجبها موقفه وأعجبها في الوقت ذاته.

شعرت بنبل أخلاقه وصدق نواياه. ومرت الأيام، ومع مرورها كان يتقرب منها شيئًا فشيئًا، كان يحاول لقاءها بوجود سالم بداية، ثم أصابه اليأس من إعراض سالم وتعنته، فاستمر التقارب بينهما إلى أن وصل ذروته وأصبح عبئا ثقيلا على كليهما..

استمرت نرجس بالسير في اتجاه الحقيقة، وجعا خفيفا بدأت تشعر به داخل أحشائها، تذكرت أنها تعاني نزيفا منذ عدة أيام، وضعت يدها أسفل بطنها وقامت بالضغط قليلا على موضع الألم محاولةً تسكينه، تجاهلت الألم واستمرَّتْ بالمسير نحو الألم الحقيقي، شعرت بدوارٍ خفيف وتوقَّفت، أسندت جذعها الأيمن على الجدار وتذكرت... وتذكرت... وتذكرت... تجاهلتها جميعًا، واستمرت بالمسير، إلى أن وصلت إلى الغرفة المنشودة، انتابها شعور مزعج بالقلق غير المفهوم.. توقفت لحظاتٍ قليلةً أمام الباب، تَمْتَمَتْ في سرِّها بعض الأدعية التي علمتها إيّاها أختها المتوفاة ياسمين، وكانت ترددها دومًا حين تشعر بالضيق في لحظات صحوها القليلة.

وكأنها كانت تعلم بما يحدث بالداخل، أغمضت عينيها، ودفعت الباب ببطءٍ لتظهر أمامها الحقيقة...

- ولكن... ما... هل ما أراه يبدو صحيحًا؟

اقتربت أكثر... ونبضات قلبها تسارعت... حتى توقفت، نظرت إلى أحمد، و إلى الرجل الآخر... نظر إليها باستغراب... حتى انتبه أحمد لوجود أحدهم خلفه... وما إن أدار بوجهه للخلف.. حتى مشت بخطوات بطيئة إلى الوراء وقد هالها المنظر وشعرت بصدمة شديدة..

- نرجس؟ ما الذي جاء بك إلى هنا... أرجوك لا تتسرعي؛ الأمر ليس كما تظنين...

ابتعدت، وأسرعت في مغادرة المكان... كانت تركض بسرعة كبيرة وهي تشعر بالخيبةِ والاختناق، ابتعدت عن المكان بأسرع ما يمكن حتى لا يستطيع أحمد اللحاقَ بها، والذي ترك كل شيءٍ وقام فعلا باللحاقِ بها، ولكنها اختفتْ عن نظرِه، وركبت سيارة أجرة، وبدلا من العودة إلى شقتها ذهبت للمبيت في أحد الفنادق القريبة ريثما تغادر غدًا صباحًا.

تناولت بعض الحبوب ثم فتحت جهاز الحاسب المحمول الموجود في الغرفة ضمن خدمات الفندق وقامت بكتابة كل ما حدث وكل ما شعرت به وقامت بإرساله إلى وردة:

(لا بأسَ، كنت سأرحل في جميع الأحوال، وكنت أضعُ احتمالًا كبيرًا في أن يرفض أحمد مرافقتي، ولكنني كنت يومها سأكون المغادرة، إلّا أن الحقيقة أنه قد غادرني و غَدَرني... ليس هو وحسب، بل سالم أيضًا، الذي هزأ بي طوال الفترة الماضية، ليس أسوأ من أن يغادرك الحب وتغادرك

الحياة بل أن يغدرك الحب وتغدرك الحياة، بالحب تصنع المعجزات، كان يقول أحمد... لا... بالحب تصنع الخيبات، وتقتل الآمال، وتستنزف الحيوات...).

وبعدما شاهدت الحقيقة بأم عينها لم تعد تهتم إن علم سالم أو أحمد برحيلها أم لا... كل ما شَعرت به هو الرغبة الشديدة بالابتعاد عن هناك بأقصى ما يمكن... وبعد أن أمضتْ ليلتها في الفندق باكيةً... غادرت الفندق صباحًا.. ووصلت إلى المطار وهي في حالة يرثى لها... شاحبة، بائسة، تذكرت أنها لم تأكل شيئًا منذ البارحة صباحًا، قاومت جوعَها الشديد، وتجاهلت الألم الذي أخذ بالتزايد في رحمِها، كانت على الرغم من كل شيءٍ، متماسكة، شحذت قواها واستجمعتها جاهدة، فقط لتصل إلى الديار، كانت أكبر مخاوفها في تلك اللحظات هي أن تنهار وتمنع من السفر، قاومت هذا الانهيار الوشيك باستحضار صورِ عائلتِها من مخيلتها، عكفت طوال فترة مكوثها في المطار بتذكُّرِها، وردة، والدتها، والدها، الراحلة زهرة، والراحلة ياسمين، والراحل ربيع (ثلاثة أفراد من عائلة واحدة رحلوا، هل أكون أنا التالية؟)!

شعرت بالموت يحيط بها من كل جانب، أين المفر؟ تذكرت الأدعية التي تحفظها وقامت بترديدها في مخيلتها بصوت ياسمين بترتيل شجيٍّ، أغمضت عينيها، ها هو وجه ياسمين المضيء يسترسل في قراءة الأذكارِ والأدعية، ثم رأت حروف الكلمات تخرج من ثغرها مجسَّمة، كلما خرجت كلمة من فمها تسبحُ في الهواء، أخذتها نرجس وقامت بابتلاعِها، ثم فتحت فمها لتدع المجال للكلمات بالدخول تلقائيا، من جوف ياسمين إلى جوفها....

رَبَّتَتْ إحدى المسافرات على كتفها، مما جعلها تصحو، توجهت نحو الطائرة، اتخذت مقعدًا بجانب النافذة، كان عدد الركاب محدودًا، وأغلب المقاعد شاغرة، مما زاد من شعورها بالارتياح، نظرت عبر النافذة إلى الخارج تنتظر إقلاع الطائرة، وقد زالت جميع مخاوفها، فلا شك بأن الصعود إلى السماء.. لن يحمل معه سوى الشعور بالراحة والاطمئنان، نظرت إلى السحب وقد أصبحت الطائرة تتخللها، ابتسمت بهدوء، رأت طفلة صغيرة ترتدي فستانًا ربيعيًّا أصفر اللون بنقوشٍ بيضاء، تقتلع أجزاء من السحاب الأبيض تُشَكِّلُ به كراتٍ صغيرةَ الحجمِ، شعرها طويل ذهبي اللون، أدارت ظهرها ونظرت إلى نرجس بعينيها الزرقاوتين نظرة ملؤها السعادة والرضا، ابتسمت.. فعرفتها... ولوحت لها بيدها...

وبعد عدة ساعات من الإقلاع، توجهت نحوها إحدى المضيفات، تتفقَّد حالها، فوجهها الشاحب، وانتفاخ عينيها واحمرارهما كان يثير قلقها على حالتها الصحية و ينذران بما هو سيئ..

- سيدتي... سيدتي... سيدتي...

بدت لها نرجس فاقدة للوعي، تبتعد المضيفة، وتقوم بإخبار قبطان الطائرة بما حدث، لاحظ أحد الركاب، والذي كان يجلس على مقربة منها حالتها، اقترب منها، وقام بمعاينتها سريعًا، لحسن الحظ كان طبيبًا، وفي هذه الأثناء، حضر المضيفة وقبطان الطائرة المساعد للاطمئنان على حالتها، قال الطبيب لهما:

- وضعها سيئ جِدًّا.. لديها نزيفٌ حادٌّ، ويبدو أنها فقدت الكثير من الدماء، ربما هي حالة إجهاض، أرجو أن تكون سيارة إسعاف في انتظارها بالمطار حين الوصول...

قالت المضيفة:

- نعم.. لقد قمنا بالترتيب للإجراءات اللازمة، لحين الوصول..

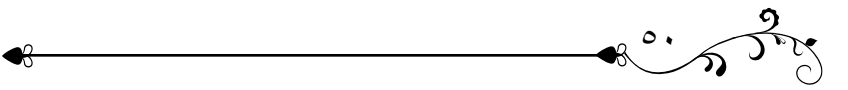

(غيبوبة)

على سرير من الترقب والانتظار استلقت نرجس تتأمل سقف غرفتها الأبيض الخالي من أي ماض.. وحدها الجدران تحتفظ بأسرار أي مكان.....

(كم سأبقى هنا، كيف انتهى بي الحال هكذا؟ هل هذا هو الموت؟ لا أشعر بشيءٍ، لا أستطيع مقاومة عدم الشعور بشيء، فقدتُ صحتي وجمالي وعائلتي وزوجي، و أولاد لم ولن أرزق بهم أبدا، واليوم أفقد نفسي.. لا بد أنه الموت).

لن أستسلم، سأشفى، نعم سأشفى وسأعود إلى حياةٍ توقفت قبل عشر سنوات، حين رحلت أختي ياسمين، ورحل معها كل شيء...

قبل عشر سنوات من الآن فُجعنا بخبر مقتل أختي ياسمين على يد زوجها، زوجها الذي أحبته، واحتملته سنوات عدة، والذي خدعت به كما خدعنا به جميعنا، وكان ثمرة هذا الزواج أربعة أبناء، كتب عليهم الشقاء لعيشهم في ظروف صعبةٍ ومريرةٍ لا تخلو من التعذيب النفسي والبدني من قبل عمهم الذي تولى رعايتهم بعد وفاة والدتهم و فرار والدهم..

في مجتمعي تسمى تلك الحادثة بحادثة شرف، الزوج كان يشك في تصرفات زوجته، أو في نواياها فأقدم على فعلته... أنا لا يهمني إن كانت مذنبة أو لا، ما يهمني هو أنه مذنب ويجب أن ينال ما يستحق من عقاب، بالنسبة لي، لم تكن المرة الأولى التي يقتلها بها، فقد قتلها أول مرة حين تقدم لخطبتها وهو يعلم أنها على قدر من الجمال و(الحشمة) فقد كانت ترتدي لباسًا دينيًّا

يعبر عن طريقة عيشها، وتفكيرها، وما تتصف به من أخلاق، جلبابا واسعا، وخمارا يخفي وجهها بالكامل عند الخروج من المنزل، وكان شرطها الوحيد للموافقة على أي زوج، هو أن يكون متدينًا، علم ذلك، وأحكم خطته بامتياز، ثوب مقصر، لحية كثيفة، مسبحة باليد! هذا هو كل ما يتطلبه الأمر، لباس ديني زائف.

ياسمين وافقت على الفور على الرغم من اعتراض والديّ في البداية، فقد كان يتيم الأب والأُمّ، مما جعل ياسمين متعاطفةً معه، وكان عاملًا بسيطًا، في مجال البناء، لم يكمل تعليمه، بينما أختي ياسمين كانت معلِّمة في إحدى المدارس، كانت والدتي تَعْلَمُ ومنذ اليوم الأول بأنّه ليس الزوج المناسب، حدس الأمهات... ولكن ياسمين أصرت عليه، وكنت أعلم في قرارة نفسي أن والدي كان يتمنى موافقتها، وكنت أعلم أنَّه دومًا كان يتمنى لو لم تنجب له والدتي أية بنات، فقد كان كمعظم الرجال في مجتمعي، يخشون البنات، يخشون العار، وتزويجهن هو الحل الأنسب للحفاظ عليهن من شبح يُسَمَّى فقدان الشرف، ولكن... يا لسخرية القدر، ها هي أختي قُتِلَتْ ومن أجل الشرف!

وحدث الزواج، وكانت قد وقعت في غرامه، أو في غرام النسخة المزيفة عنه، وعلمت بعد فترة وجيزة بأن من تزوجته يرتدي لباس الدين والوقار، متى ما كانت مصلحته، ويخلعه فور انتهائه من نيل مراده، لم تخبرنا أي يوم بما كان يحدث معها، لم تخبرنا باعتدائه عليها بالضرب المبرح كل ليلة بعد عودته ثملا!

لم تخبرنا بأنه قام بمنعها من الخروج للعمل، وأنه في أحد الشجارات التي دارت بينهما قام بتمزيق شهادتها الجامعية، وبأنه قام بحبسها في المنزل عدة مرات مغلقًا عليها الباب بالأقفال، لم تخبرنا بأنه سرق كل ما تملك من مال وذهب، وقام بإنفاقه على ملذاته الخاصة، لم تخبرنا عن الشُّحِّ العاطفيّ الذي عانته، والكم الهائل من الشتائم والألفاظ البذيئة التي كان يوجهها لها، عن معاملتها كخادمة، كَنَكِرَةٍ، عن اغتصابها، قهرها وظلمها، عن عجزها وبؤسها لم تخبر أحدا قط، إلى أن قمنا بقراءة مذكراتها التي أخفتها خلف الثلاجة، واكتشفتها أختي وردة بالصدفة بعد وفاتها....

لماذا يا ياسمين لم تخبري أحدا، لمَ لمْ تتخذي موقفا حازما، لماذ لم تنقذي حياتك قبل فوات الأوان؟ أعرف ياسمين جَيِّدًا، فقد تكون خافت الطلاق، فالمرأة المطلقة في مجتمعي سيئة السمعة، وقد تكون خافت على أولادها من الشتات، أو ببساطة لم ترغب بتشويه صورة زوجها أمام عائلتها وأمام الناس، أنا لا يُهمني السبب الحقيقي الذي جعل زوجها يفعل ما فعل، أنا يهمني أنها كانت تُحِبُّه، بل كانت تحب الله، وتخشى عصيانه، ولكن... ليس هكذا يكون حب الله، نحب الله بالحفاظ على أنفسنا، نحب الله برعاية أجسادنا وقلوبنا، نحب الله بعدم الاستسلام لما يحدث لنا من أمور سيئة، نحب الله حين نحب أنفسنا ببساطة، هكذا كان يقول لي أحمد.

لا أزال أذكر ابتسامتها الصبوحة التي كانت تنير وجهها عندما كان يتم ذكر اسمه أمامها، وأذكر ساعة اليد التي قمنا بشرائها سويا من أحد مواقع البيع عبر الإنترنت، فكانت الساعة غير مطابقة لما قامت باختياره، كان إطارها الخارجي أسود اللون، أما المنتصف فقد كان ذهبيًّا بشكل لافت، وكان يتدلى

منها سلسلة قصيرة تحمل أول حرف من اسمها، كانت مميزة لا تشبه ساعات اليد التقليدية...

أذكر يومها حين علمت برحيلها، أُصبتُ بإغماءة صغيرة لا تماثل الإغماءة الكبيرة التي أعيشها اليوم، ذكرياتي... أين تذهب ذكرياتي حين أكون في حاجة لها... لماذا نستطيع تذكر البعض... ولا نستطيع تذكر البعض الآخر؟... من يقوم باختيار الأجزاء التي سنتذكرها لاحقا، أو التي سننساها؟...

لست متأكدة تمامًا إن كان حب النجومية والشهرة هو السبب في ما أعانيه الآن، ربما.... لأن الصورة النمطية التي ترسمها وسائل الإعلام عن النجوم هي هكذا، كما كان يبدو لي أو كما كنت أظن، لامعة، براقة، مثالية، سعادة أبدية، كنت بحاجةٍ لهذه الشهرة، ولهذا النوع من النجاحِ وتحقيق الذات، كنتُ بحاجة للفْت الأنظار، كنت بحاجة لتصفيق الجماهير، أكبر قدر ممكن من الجماهير.. وامتعاض النقاد.. كنت بحاجة لأن أكون تحت الأضواء.. خلف الشاشات.. على أغلفة المجلات.. كنت بحاجة لأن أكون حديث الفتيات.. وحلم الفتيان.. أن أسلك سلوك النجمات في الخروج عن العادات!

الفنان مقدَّس.. التمثيل مقدَّس.. والغناء مقدَّس.. أغلفة المجلات.. البرامج التلفزيونية.. لا شيء... سوى المغنيات، والممثِّلات، الجوائز والمهرجانات...

أو ربما هو حب سالم؟ أو حب سالم؟...(تضحك بصوت مرتفع)، إذن... الحب والحب، والقاسم المشترك بينهما الإدمان....

كان الوقت شيئًا مهمًا بالنسبة لي، كان يعني لي مواعيد الأفلام في دار السينما التي كنت أواظب على الذهاب إليها على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع، كان يعني مواعيد البرامج الخاصة بلقاء النجوم على التلفاز، كان يعني مواعيد لقاءات سالم... ماذا حدث للوقت كيف أصبح أداة في يد الموت تساعده في الحصول على أرواحنا؟!...

وبالعودة إلى ذلك اليوم في المساء الذي توفيت به ياسمين، كانت النساء قد اجتمعن في غرفة المضافة لتقديم واجب العزاء، خرجت إليهن لسبب واحد فقط! سماع ثرثرتهن، الحديث عن ياسمين وما فعلت، وإن كانت تستحق ما حدث لها أو لا.

في مجتمعي، الجميع يصبح قضاة، ويبدؤون بإطلاق الأحكام، حتى دون معرفة الحقيقة كاملة، لا داعي لذلك، جميعهن يتمتعن بموهبة اختلاق القصص والحكايا، ومن لا تمتلك تلك الموهبة فهي تمتلك موهبة أخرى لا تقل أهمية، والتي هي ربط الأحداث وتحليل المواقف، جلست على أحد الكراسي، وقمت بتفحص وجوه النسوه والتي بدت بغيضةً في معظمها، جميعهن على معرفة تامة بعائلتي، إما قرابة، وإما صداقة، وإما جيران.. فكيف تتجرأ النسوة على الحديث بسوء عن أحد أفراد العائلة ، على الرغم من تلك المعرفة والعشرة؟...

(كان الله في عونك يا أم ربيع، راحت الحلوة)..

هذا التعليق كان من إحدى النساء، وهو الأقل أو الأكثر قسوة، وذلك على اعتبار أن أختي وردة غير محسوبةٍ بسبب إصابتها بالحادثِ الذي تعرضت له منذ عدة سنوات مما أفقدها جمالها بالكامل، وعلى اعتبارِ أنني

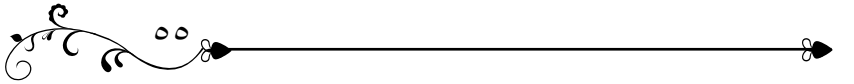

قبيحة ولن ينظر إلي أحدهم وقد تكون العنوسة مصيري المحتوم، فقط لأنني سمراء البشرة وبشعر داكن مُجَعَّد، دائمًا ما كنت أسمع التعليقات المسيئة والتي تحمل في طياتها الكثيرَ من العنصرية، بسبب اختلافي عن باقي أخواتي.

لم أكن أقلهن جمالا فقط، بل مختلفة تماما، ياسمين، ووردة، وزهرة، وحتى أخي ربيع، بيض البشرة، عيونهم زرقاء تمامًا كوالدتي، شعرهم يتفاوت بين الأشقر الغامق، والفاتح، والبني، أنا كنت أُشبه جدة والدي التي لم ألتقِها قط، توفيت قبل ولادتي بفترة طويلة، وفي مجتمعي من المهم جِدًّا للفتاة أن تتمتع بمواصفات محددة حتى تتم خِطبتها، وليس مهما أن يكون الخاطب أيضًا على قدر من الجمال أو بالمواصفات المطلوبة لدى أغلب العوائل.

يكفي أن يكون جيد الدخل، بوظيفة جيدة ليكون العريس المناسب، ماذا لو كانت لي مواصفات شكلية معينة أبحث عنها في الرجل؟ ماذا إن كنت أرغب بأن يكون زوجي المستقبلي أشقر الشعر؟ ماذا لو كنت أريد الارتباط برجل مفتول العضلات، وسيم، ألا يحق لي اختيار الزوج بِناءً على شيء من المواصفات الشكلية؟ ماذا إن كنت أشعر بالنفور من الرجل كثيف شعر الصدر، ماذا إن كنت أتقزَّز من الرجل ذي الشارب؟ ماذا إن كنت أحلم بطويل القامة؟

لم أكن أهتم لنظرات الناس لي قط في حقيقة الأمر، فقد كنت عاشقة لأحدهم... سالم.

كان سالم يسكن مع والديه في الطابق الأرضي في نفس العمارة التي أسكنها، ابن الجيران، طويل القامة، عريض الكتفين، ضخم البنية، كمقاتل روماني قديم، كان شعره أشقرَ ناعمَ الملمسِ يصل طوله إلى أسفل أُذنيه،

عيناه صغيرتان مشدودتان من الجوانب قليلا، بلون البندق، وكان يبادلني الاهتمام ذاته في بادئ الأمر، غير أنه وبعد مرور مدة ليست بسيطة على علاقتنا، حاول الابتعاد عني بكل الطرق، وبكل الحجج المألوفة واللا مألوفة، حتى أنّ الابتعاد عني أصبح بالنسبة إليه هدفًا بحد ذاته، ليال عديدة أمضيتها بالتفكير، لم أصل لنتيجة واحدة مقنعة، كنت أعلم أنه يخفي أمرا ما، سيكون محور حياتي القادمة..

تسللتُ يومها خفية، تاركة مجلس العزاء المملوء بالنفاق والزيف والكذب، لملاقاة سالم أسفل درج العمارة، بعد أن أرسلت له رساله على هاتفه المحمول واتفقنا على اللقاء، جلسنا على إحدى الدرجات كما كنا نفعل دائمًا...

- كيف أنت؟

- أحسن..

- الحمد لله، متأكدة لم يلحظك أحد؟

- لا أهتم، فلقد ألحقت ياسمين العار بالعائلة بالفعل.

قلتها بسخرية... وشعر سالم بشيء من تأنيب الضمير..

- أنا آسف، لم أقصد شيئا..

- ليتك رأيت نظرات النساء لي، وكأن بعضهن كان يتمنى لو كنت مكانها، لا أحد يصدق أن امرأة ملتزمة باللباس الشرعي وترتدي خمارًا قد ترتكب إثمًا..

- جيد جِدًّا.. إذن، يعلم الناس جَيِّدًا أن ياسمين بريئة..

- لا، ليس جَيِّدًا على الإطلاق، أقصد.. أنا أعلم أن ياسمين بريئة لأنني أعرف من هي ياسمين، وليس من أجل لباسها الذي اختارته كأسلوب حياة..

- تعلمين أن الناس لا يهمها سوى المظاهر...

- نعم... ربما كما قلت من حظ عائلتي أن ياسمين عرف عنها تدينها، ماذا لو كانت مثلي؟ متمردة، عاصية...

- أنت صغيرة، وأمامك الحياة طويلة... كما أنك جيدة بما يكفي، أنتِ طيبة القلب ومحبة للخير..

- لا تَكفِي طِيْبَةُ القلب، فلن يراها أحد، فهي ليست نوعًا من أنواع العبادات التي يمكنك ممارستها علنًا، وتلك الأمور كلها أكثر أهمية من أن تكون طيب القلب محبا، ودودا، لطيفا، حتى يتم اعتبارك من قبل الناس متدينا. أخشى الموت، الموت لا يعرف عمرا، ولا ظرفا، الموت لا ينتظر أحدا، ليتني أبتعد عن هنا، أريد أن أبدأ طريق النجومية باكرا قبل أن أموت، متى سنغادر؟

- ههه، ظننتك ستقولين: أريد التوبة، أو شيئا من هذا القبيل... كما أنني ظننتك ستأجلين موضوع الزواج والسفر بسبب ما حدث.

- لا أستطيع التأجيل، مسابقة الأداء لا أستطيع تفويتها، هذه فرصتي الوحيدة، سنغادر كما خططنا من قبل..

- هل أنت متأكدة من قرارك؟ قد تحتاجين البقاء بجانب عائلتك؟

- لا أستطيع، لا أستطيع البقاء. هذا المنزل مليء بالحوادث المأساوية، بالأحزان، إن بقيت فيه سأموت..

أمسكَ يدها وقبلها بلطف...

- أنا فقط خائف..

- تحدثنا مرارا في هذا الأمر، أنا و أنت مصيرنا واحد، سنواجهه سويا، سنقف أمام كل الصعوبات الممكنة، سنواجه كل شيء بالحب، لا سبب يستدعي خوفك، كما أنك كنت دوما تحدثني عن اشتياقك للحياة في أمريكا حيث طفولتك، وكنت تقول دومًا أنك تشعر بأنك محظوظٌ لأنك تحمل الجنسية الأمريكية، مما يعني رحيلك عن هنا في أي وقت للبدء بحياة جديدة ولتحقيق الأحلام، نحن الاثنان بحاجة لبدء حياة جديدة، وأمريكا هي المكان الأنسب لذلك، أنت تكمل دراستك الجامعية، وأنا سأقوم بخوض تجربة الأداء للالتحاق ببرنامج (اكتشاف المواهب التمثيلية)، قمنا بترتيب كل شيء، وحصلت على تأشيرة الدخول، وقمت بشراء تذاكر الطيران، هذه فرصتي التي لا أريد تفويتها..

- ولكن الوضع الآن اختلف، ماذا سيحدث بعدما يعلم الناس أنك غادرتِ مع أحدهم، وسافرتِ، ثم بعد عدة أشهر يرونك على التلفاز كإحدى المتسابقات في برنامج اختيار المواهب الخاصة بالتمثيل تلك، ماذا سيقول الناس؟

- ما يقوله الناس لا أفكر به أبدا، ولا أريد التفكير به، أنت تعلم ذلك، كما أن الناس على جميع الأحوال تتحدث عن الناس، بالحسن وبالسيء، من يريد التحدث لن يسكته شيءٌ..

- فكري أن من سيستمع لكلام الناس هي عائلتك التي ستخلفينها وراءك مع قدر كبير من الحزن والألم على مغادرتك المفاجئة..

- صدقني، ما مرت به عائلتي أكثر ألما مما قد يسببه مغادرتي.

- الحل بسيط جِدًّا، أخبريهم برغبتك بالزواج والسفر، أخبري أمك على الأقل ولا تفطري قلبها..

- وردة تعرف...

قال وهو يشعر بالسعادة والارتباك:

- جيد، هذا فعلا جيد، فأنا بالفعل أرغب بالابتعاد عن هنا، بل أنا مجبر على ذلك في حقيقة الأمر، إلا أنني كنت أريد التأكد من رغبتك بالمغادرة بغض النظر عن اضطراري له...

- اضطرار؟ لماذا؟ ماذا حدث؟

صمت سالم، وتردد... ثم استأنف قائلا:

- تذكرين (أمل)؟

- الفتاة الصغيرة من الحي المجاور، والتي أعلن عن اختفائها قبل عدة أسابيع..

- نعم هي... لقد وجدوا جثتها....

- هاااه، قتلت؟

- بل اغتصبت ثم قتلت...

- يا الله...

دمعت عيناه، وجففهما بسرعة... أمسكت بيده وقالت له:

- لا تقل لي بأنك مشتبه به؟

- نعم، تماما... أمس رأيت والدها أعلى الدرج مغادرا منزلكم، رمقني بنظرة مليئة بالاتهام، عاجلا أم آجلا سيلقون بالقبض علي..

- ولكنك ليس المذنب..

- نعم، ولكن الأمر برمته يفوق قدرتي على الاحتمال.

- آه.... يا الله..

- ومع ذلك أقول لك لا تتعجلي اتخاذ القرار، فكري الليلة جَيِّدًا بما تحدثنا به، افعلي هذا للمرة الأخيرة من أجلي وسأنتظر منك رسالة.

هذه المرة لم يكن سالم يتهرب من تحمل المسؤولية، ولم تكن طريقة للفرار والتنصل من وعوده، بقدر ما كان خائفا بالفعل من أن أتأذى بسببه، خاصة بعدما أصبح مطلوبا للعدالة، في الفترة السابقة وعندما حاول الابتعاد عني لم أستسلم ولم أيأس ولم أكن لأتنازل عن سالم أبدا...

كانت والدتي تقول لنا دوما: (إياكم والحب!) كانت ترى أنه مدمِّر لأنه مستهلِك للعواطف، كانت تقول أنها لا تخاف على بناتها من فقدان العذرية كباقي الأمهات، بمقدار ما كانت تخاف عليهن من فقدان الكرامة. الكرامة تكون بالقوة والصلابة، باتخاذ القرارات المنطقية وليس العاطفية، طريقة والدتي في وصف كرامة الفتاة وعزتها تشعرني بأنها امرأة ليست بوالدتي التي أعرف، تشعرني بأنها امرأةٌ مختلفة تماما، سيدةٌ مدافعة عن حقوق المرأة، كاللواتي نراهن على صفحات المواقع الإلكترونية، والبرامج التلفازية.

أما والدتي التي أعرف في الحياة الواقعية... فقد كانت خاضعةً لتقاليد المجتمع مهما كانت لا تعجبها، تهتم بما يقول الناس، تنام ليلا مفكِّرةً بردّات فعل الناس تجاه تصرفاتها وأفعالها. كانت أمي سيدةً اجتماعيةً بامتياز، تحب الاجتماعات و اللقاءات، كان لها دورٌ حقيقيٌّ في أي من القرارات المهمة التي كانت تتخذ في هذه العائلة بعد التفكير العميق فيه،

وتخيل ردات فعل الناس تجاهه، ربما لو تمسَّكَتْ برفضها لزواج ياسمين لما حدث ما حدث.

في بادئ الأمر لم تعجبها مهنته التي لا تتوافق اجتماعيًّا مع مهنة أختي، على حد قولها، ثم لم يعجبها أن يكون وحيدًا، بلا عائلة تقريبًا، فكيف ستفخر به أمام قريباتها، على الرغم من المستوى المادي المتدني الذي كان يعانيه، إلا أن ما كان يظهر منه من تدين كان كافيا وافيا لقبولها به.

أما والدي فكان كجميع الاباء، صارمًا وقت الحاجة، وليِّنًا باقي الأوقات، يصعب تصديق أنه كان يكره أن يُرزق بالإناث، لم يظهر ذلك قط، في الحقيقة هو كان يشعر بالإشفاق على مصائرنا في هذا المجتمع الذي نعيش فيه، كان يشعر بالعجز تجاه توفير الحماية المناسبة لنا من قسوة المجتمع وظلمه للمرأة، لذلك كنت أراه أحيانا مساندا وأحيانا أخرى صارما، لا بد أنه الآن يشعر بشيء من تأنيب الضمير، وبأنه مسؤول ولو بشكل بسيط عما حدث لياسمين، لا ألقي باللوم عليه أبدا، لو كان يشك ولو للحظة واحدة بأن ياسمين قد تفقد حياتها نتيجة لهذا الزواج البائس لما وافق على إتمامه، أحب والدي كثيرًا، كان كريما، معطاء، قام بتوفير حياة كريمة لنا، وعندما أصيبت وردة بالحادث، حاول تعويضها عما ألمّ بها، وقام بتوفير كل ما تطلب وتحتاج من أدوات ومستلزمات لمزاولة هواية الرسم التي لازمتها حتى بعد الحادث، كان صامدًا شامخًا حين علم بمقتل ياسمين، واثقًا من براءتها، إلا أنه حزن بعد دفنها حزنا شديدا، وعزف لفترة طويلة عن الخروج من المنزل، حتى أنه امتنع عن الذهاب للمسجد، ولم يعد يبتسم كثيرا، كلامه قليل..

وطعامه، لا سِيَّما بعد التقاعد، اعتزل الحديث، والالتقاء بالزوار، اعتزل الحياة مبكرا..

لَو كُنْتُ أخبرته برغبتي في المغادرة، لو كنت أعلم أنه سيقوم بتشجيعي مثلا، ولكن هذا لم يكن ليحدث أبدا، ممثلة؟ أي عار سيلحق بالعائلة بسبب تلك المهنة؟ نشاهد الأفلام ونعجب بالممثلات، طريقة لباسهن، تسريحة شعورهن، حياتهن الخاصة، نقلدهن ولكن نرفض أن نكون إحداهن، أي تناقض هو هذا؟ أشعر بأنني محظوظة لأن (سالم) ليس لديه أي اعتراض على هذه المهنة، بل إنه يقوم بتشجيعي على تحقيق حلمي..

لم أخطط للوقوع في حب سالم، ولم أكن أفكر به، كان اهتمام سالم بي ومراقبته لي كل يوم هو ما دفعني للحديث معه، كان معجبًا بي وحاول إخفاء ذلك، يراقبني كلما دخلت أو خرجت من العمارة، أحيانا كنت أراه يسير خلفي، وعندما كنت ألتفت ورائي كان يختبئ، أو يدير ظهره متظاهرًا بعدم الاهتمام، هذا التصرف كان يضحكني في البداية.. إلى أن اعتدته بعد مدة..

ولكنني وقعت في غرامه وكان لا بد من الاستجابة، كان يعجبني في سالم هدوؤه، لم يكن يهتم بمغازلة الفتيات، وكان يعجبني في سالم أنَّه كان يخوض عراكات مع الشباب الذين يتعرضون للفتيات بالتحرش اللفظي، كان هذا أكثر ما يثير حنقه، حتى أنه كان يتتبع إحدى الفتيات الصغيرات يوميا في طريق ذهابها إلى المدرسة وأثناء عودتها، حماية لها حينما تحرشت بها مجموعة من الفتيان الزعران في الحي المجاور.

هذا ما قاله لي، كان تصرفًا مبالغًا فيه، إلا أنه كان شديد النبالة والشهامة، كل الصفات الجميلة كانت موجودة في سالم، نعم، كلها...

بلا شك.. وكان شديد الإعجاب بي، لذلك لم أفهم سبب ابتعاده عني، ثم تواصلت مع جميع أصدقائه، حتى التقيت بفادي أحد أصدقائه وأخبرني بالحقيقة، بل وقمنا بوضع خطة محكمة، الهدف منها استعادة سالم في مقابل فقداني لذاتي...

كان فادي أحد أصدقاء سالم المقربين، يكبره بعدة سنوات، وكان يعلم بعلاقتنا، وقد لاحظ ابتعاد سالم عني.. لاحقته مرارا.. إما بالذهاب لمكان سكنه أو لمكان عمله، كان يعلم أنني سأتمسك بسالم، وكان يعلم أنني سأقوم بسؤاله.. في الحقيقة... لقد انتظر لجوئي إليه، فبالنسبة له، ما أنا إلا زبون جديد..

اتفقنا على اللقاء، وقال أن الطريقة الوحيدة لنبقى سويا إلى الأبد، هي مشاركته في الوضع الخاص الذي يعانيه...

قام بإعطائي حفنة من الحبوب بالمجان... وقال أنه وبعد عدة أيام وبعد نفادها... ما عليَّ سوى الاتصال بسالم، وطلب المزيد...

جن جنون سالم... وعلم بمكيدة صديقه، نهرني كثيرا، وكاد يبرحني ضربا، لولا أنني كنت في حالة إعياء، وكنت بحاجة شديدة لجرعة جديدة..

وبالفعل تعهد سالم بملازمتي ورعايتي حتى يقوم بعلاجي...

أي جنون هذا الذي دفعني لفعل ما فعلت... جنون الحب..

وبعد انقضاء أيام العزاء الثلاثة، استغللت تواجد والدتي وأخي في المستشفى بالقرب من والدي الذي أصيب بجلطة قلبية، لم نعلم لها سببا، اطمأننتُ على حالته الصحية، وأسرعت إلى المنزل وقد كانت وردة في انتظاري، أتذكر جَيِّدًا كيف كان وداعي لها، كاد حزنها على رحيلي يبقيني، كاد

بكاؤها يقتلني، ليتني مت تلك الليلة، ذلك الوجه المُجَعَّد قبل أوانه، كان أجمل ما في الصباح في تلك الأيام، ابتسامتها التي ترتسم على شفتيها الموجتين طاقة هائلة من السعادة والأمل، ورغم أنها تصغرني بعدة سنوات إلا أنها كانت تشعرني بمقدار هائل من الحنان يشبه حنان الأمهات، ماذا أخذت منك الناريا وردة؟ وماذا أعطتك في المقابل؟

كل هذا الدفء!

وكأنها تفتقد إلى زهرة، وكأنها تستعيض بي عن توأمتها المتوفاة.. كنا نتشارك نفس الغرفة، والكثير من الأحاديث والأسرار، كانت جمهوري الأول، كنا نتشارك في وضع المشاهد التمثيلية، تكتبها هي ثم نقوم بتمثيلها سويا، كانت مؤمنة بموهبتي وبحبي الشديد للتمثيل، وكان يعجبها شكلي، وتنتقد دومًا استيائي منه، كنت دائما أقول لها: لو أنني ولدت أجمل لكان طريق نجاحي أسهل، كانت تقول لي: احمدي الله فالوجه نعمة، والشعر نعمة، والجلد نعمة، والحياة أكبر النعم، وعلينا شكر الله عليها وعدم التَّذَمُّر أبدا، التذمر من صفات الجاحدي ، كنت دائمةَ التذمر، ربما ما أعانيه الآن كان عقابا على تذمري الدائم لكل شيء...

بسيطة هي الحياة، أشياء بسيطة كفيلة بإسعادنا، لا نشعر بقيمتها الحقيقية حتى نفقدها، فنجان من الشاي الساخن، أتناوله في سريري، مع أنغام صوت فيروز في إحدى صباحات الشتاء البارد مثلا... كم أفتقد تلك الأيام! اجتماعنا حول سفرة الطعام لتناول الغذاء... طعام أمي الشهي... القدرة على مضغ الطعام وبلعه دون الشعور بالألم... طريق الذهاب إلى المدرسة في أيام الربيع الجميلة.. رائحة الشجر والزهر.. رائحة التراب المبتل

توًّا بالماء.. المنازل سعادة... أحضان الأمهات سعادة... عناق الآباء سعادة... الأخوات سعادة... وردة كانت سعادة ومصدر بهجتي وسروري...

كانت وردة تستيقظ كل يوم باكرًا لتمارس هوايتها في الرسم قبل استيقاظ الجميع، ماذا ترسم؟ ولماذا كانت لوحاتها تبدو غير مكتملة؟ عادة تبدأها برسم قرص الشمس الدائري المتوهج في وسط اللوحة من الأعلى، وأحيانا على يمينها، وأحيانا على يسارها، دائرية صفراء اللون بحدة، ثم تترك باقي اللوحة فارغة وتنتقل إلى لوحة جديدة وتبدأها كسابقتها، وهكذا.. لم تكمل لوحة يومًا قط، وعندما كنت أسألها مستفسرة عن تصرفها الذي بدا غريبًا بالنسبة لي، كانت تقول وهي مبتسمة كعادتها في الابتسام عند الحديث إليّ:

(لا يهم إكمال اللوحة.. ستكتمل.. سيأتي يوم ما وتكتمل...).

كانت عاشقة للنهار كانت ترى أن الضياء مبعثًا للأمل فالنهار هو البداية، وقد كانت في انتظار بداية ما، أما بدايتي أنا مع رحلة الضياع فكانت قد بدأت بالفعل.

أغلقت نرجس الكتاب الذي أحضرته لها وردة بالأمس ووضعته بحرص إلى جانب السرير...

(أبو سالم)

نظر أبو سالم حوله ليتأكد من خلوّ الشارع الجانبي من أية مارة، ثم استهدف إحدى السيارات بنظره، وتأكد من وجود ليلى في الداخل، مشى سريعا وركب بجانبها وهو يشعر بالغضب..

- ها أنا هنا معك، ماذا تريدين مني؟

ابتسمت ليلى بخبث، وهي تشعر بأن خطتها قد نجحت بالفعل، رغم أنها فكرت في هذا اليوم كثيرا وخططت له مرارا، وتدربت على كل كلمة ستقولها له، بالنسبة إليها، هذا اليوم حاسم، وقد انتظرته سنوات طويلة، وها هو اليوم أصبح أمامها، في متناول يدها لتفعل به ما تريد..

- يا آنسة، ماذا تريدين مني؟

- كنت أفكر.. بما أننا جيران ونسكن العمارة ذاتها، فقد نوطد علاقتنا معا وكما يقال: (الجيران لبعض)..

يمسك مقبض الباب ويهم بالمغادرة، إلا أنها تستوقفه متسائلة بتعجب مصطَنع:

- ألم تعلم أن نرجس عادت؟ أين سالم؟ لماذا لم يعد معها؟

تراجع أبو سالم عن قراره بالمغادرة وقال لها وهو يشعر بقليل من الحزن والاستغراب:

- أعلم أنَّها عادت من دونه، وقد أخبرني والدها بأنه يرغب أن تنفصل عنه...

- نعم، لا بد أن يطلب منك هذا الأمر فهي ومنذ عادت إلى البلاد في المستشفى ، في غيبوبة تامة..

- لست مهتما بها، ابني الوحيد أبعدته عني ولم تستطع إسعاده..

- وأنت؟ هل تسعدك أم سالم؟

- وما شأنك أنت؟

- بصراحة يا (أبو سالم)، -نعم سأقول لك الصراحة، ولا يهمني شيء بعدها- منذ أن انتقلت للسكن في عمارتكم، وأنا أشعر بشعور غريب نحوك، أنت لست ككل الرجال! هذا الشيب الذي في رأسك يعجبني، نبرة صوتك الحادة تثير بي كل المشاعر الجميلة، عيناك المتسعتان وعلى الرغم من اختفائهما تحت النظارة إلا أنني أحبهما بشدة، وأحب نظرات عينيك رغم أننا لم تلتقِ أعيننا سوى مرات قليلة، وأعلم أنك لا تنظر حولك أبدا مسرعًا إلى بيتك متحاشيًا رؤية نساءٍ مثلي، وكنت أقف كل يوم وأنظر إلى نفسي في المرآة وأتساءل: ما الذي ينقصني لينظر إليّ، ألم يلتفت إلى أي شيء بي؟ الجميع يشيد بجمالي، ألا أُعجبه؟ هل كنت في شبابك هكذا؟

أنهت جملتها الأخيرة ولم تستطع مقاومة أنهار الدموع المتساقطة على وجنتيها، امتدت يده المرتعشة إلى وجنتها وقبل أن يقوم بمحاولة مسح دموعها، أبعدت وجهها ونظرت إلى الجهة الأخرى، وقالت وهي تجفف دمعها، وقد توقفت عن البكاء:

- أرجوك، لا أريد أن تكون علاقتنا معا مبنية على الشفقة والعطف، أنا أنظر إليك كرجل حقيقي، وأودّ أن تبادلني نفس المشاعر، أنا أستحق ذلك، جميع الرجال ينظرون إلي بعين الرغبة، وأنا أتمنَّع، من أجلك فقط، ولا

تظن أن عملي الذي أقوم به في الملهى الليلي كراقصة شيء يسعدني، لقد اضطرتني الظروف لهذا العمل، بعدما أغلقت الأبواب كلها في وجهي، ولم أجد سبيلا لتحصيل لقمة العيش سوى العمل كراقصة، خاصة وأنني كما ترى جميلة، وأتمتع بالمواصفات اللازمة لأداء عمل كهذا.

- لاحظت ذلك، وكما ذكرتِ أنتِ صغيرة وجميلة، وأنا.... عجوز كهل... وكما ترين صحتي ليست جيدة...

- ولكنك تعجبني، وهذا هو المهم... أم أنك تراني كعجوز؟!

قالت جملتها الأخيرة بحدة وهي تشعر بالغضب الشديد، ولكنها تماسكت أعصابها ولم تشعره بغضبها الذي استعر في داخلها، نظر أبو سالم إلى ساعته، وشعر بقليل من الارتباك...

- سأذهب، لقد تأخر الوقت..

- متى سأراك؟

- ماذا؟ لا، لا، لا أستطيع...

- بلى، تستطيع، يجب أن تأتي لملاقاتي ولكن هذه المرة في المكان الذي أعمل فيه، يجب أن تراني وأنا أقدم استعراضي..

- أنا لم يسبق لي الذهاب إلى مثل تلك الأماكن...

- يجب أن تأتي... سأنتظرك الخميس القادم هنا في السيارة كما اليوم، في نفس الموعد، سنذهب سويا... آن الأوان لتقوم بتجديد شبابك.. والآن يمكنك الذهاب، يجب أن أذهب لقد تأخرت على العمل..

كان أبو سالم قد غادر الحي القديم الذي يسكنه، بعدما أصبح مشهورا هناك بحبه ووده للأطفال وإعطائهم الحلوى والسكاكر، يعزو

البعض ذلك لتقدمه في السن وتأخره عن الزواج... وحتى بعد زواجه فقد تأخرت زوجته في الإنجاب، ثم.. وقبل ميلاد سالم قرر الرحيل المفاجأ عن الحي القديم، وهاجر إلى أمريكا لفترة من الوقت، كحال الكثيرين، ثم عاد بعد ميلاد سالم بعدة سنوات، وسكن الحي الذي يقطنه الآن...

لم يهتم يوما لأحوال سالم على خلاف المتوقَّع ، وكان يخشى تزويجه لا لشيء، بل لسبب بسيط، وهو أنه ببساطة يكره النساء، يكرههن جميعا، حين حملت أم سالم بولدها الوحيد كانت أكبر مخاوفه أن تكون المولودة فتاة، أما أم سالم فقد حاولت جاهدة طوال السنوات الفائتة أن ترزق بطفل ثان، ولكن (أبو سالم) لم يسمح بذلك قط...

كان على أم سالم أن ترتدي اللباس الأسود مع خمار لتغطية وجهها كاملا، وطمس معالمها، وإخفاء هُوِيَّتِها، ليس لسبب ديني، بل لسبب عنصري فرضه زوجها عليها، ولو كان بإمكانه حبسها في المنزل لما تأخر عن ذلك، ولكنها كانت مضطرة للعمل في أحد المصانع، وكان أبو سالم عاطلًا عن العمل طوال الوقت...

(حنين)

حملقت نرجس في الكتاب وتمتمت:

(هذا كتاب ضخم يحتوي على أكثر من حياة، تشترك جميعها بالمعاناة عدا صلة الدم التي جمعتنا، والأحداث، والأيام، والحقيقة، وكل ما حدث لعائلتي.. إذن.. العالم لا يدور حولي، وإن كانت مذكراتي التي جمعتها وردة مما كنت أكتب لها، لست تلك النجمة الشهيرة التي تفوق حياتها وأحداثها أهمية عن أية حياة أخرى، كنت أتمنى ذلك، إلا أنني وفي نهاية المطاف... كَمْ أشعر بالفشل.. وبخذلان الذات.. كنت الأسوأ في كل شيء، ربما أنا أستحق ما أعاني، ربما أنا أستحق الموت، أكثر من أي أحد، ربما كنت الأكثر بغضا، والأكثر أنانية).

(مهما كانت الحقيقة لا بد وأن تبقى إحدى أوجهها مجهولة، ككل الحقائق، لا حقيقة كاملة، الموت فقط، الموت هو الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة، كم أتمنى لو أتمكن من قراءتها قبل أن يباغتني الموت، الحقيقة الكاملة، بين يدي في هذا الكتاب).

نظرتْ إلى ساعة الحائط، تصبَّبت عرقا، استغرقت بالتفكير وشعرت بالذعر المفاجئ.

(سأبحث عن الجزءِ الخاص بأخي ربيع، أعلم بأن أمي لم تخبرني بحقيقة وفاته كاملة، أو أنها فعلتْ، ولكنها سقطت من ذاكرتي كالكثير من الذكريات التي فقدتُها).

وجدوه في غرفته معلقًا بحبل يلتف حول رقبته بإحكام، وجسده النحيل جِدًّا كان يتدلى، وعلى وجهه ابتسامةُ النصر، نشوة الخلاص...

كان ربيع أكبرَنا سنًّا، كان يذكر تفاصيل الحادثة المروعة التي حدثت لعائلتي؛ انقلاب السيارة التي كان يقودها والدي..

كان الأكثر تأثّرا كما كان يبدو في نهاية الأمر..

(تلك الحادثة... نعم... كان على وردة أن تبدأ الكتاب بتلك الحادثة التي قلبت حياتنا رأسا على عقب... فمن هناك تبدأ الحكاية بلا شك، فبعد تلك الحادثة تغير كل شيء).

جميعنا أُصبنا في ذلك اليوم بجروح ماعدا وردة! المسكينة... وكأن القدر واللعنة كان تلاحقها.. فأصيبت بحادث مروري آخر تسبب به سائق الحافلة المدرسية، فاحترقت بالكامل كما احترقت توأمها زهرة في حادث انقلاب السيارة في السابق ورحلت، وكأنها تأبى فراقها.. بالنسبة لتوأمتين حقيقيتين، تقاسمتا ذات الرحم، هل كان عليهما أن تخوضا نفس التجربة؟!

(غريب أنت أيها الموت، وكأنك لا تملك المزيد من الخطط الكافية لتنال من ضحاياك، أسلوب مكرَّرٌ سخيف... لكن لا... وردة لا تزال على قيد الحياة، وهي سعيدة أكثر مما مضى، وعندما زارتني بالأمس، كنت أشعر بالغيرة تجاهها، كنت دوما أشعر بالغيرة تجاهها، لقد استطاعت مقاومةَ كل شيء والاستمرار، تفوقت دراسيا، وتتمتع بعدة مواهب الكتابة، والرسم، هما الهوايتان المفضلتان، وتتقن ثلاث لغات أجنبية، وكما أخبرتني فقد التقت بنصفها الثاني توًّا، عن طريق أحد مواقع التواصل الإلكتروني).

(إذن... وردة مغرمة وأخيرا.. وسعيدة أيضًا.. والسعادة والحياة وجهان لعملة واحدة.. مما يعني أنك لن تنال منها أبدا أيها الموت، وكما أخبرتني أمي أمس، فإنها ووالدي موافقان على هذا الزواج على الرغم من أنه ليس بعربي ويسكن أوروبا، قالت: إنها لفرصة كبيرة أن تتزوج رجلا لا ينتمي إلى هنا، فبعد الحادثة.. كانت تقول والدتي أنها لن تتزوج أبدا، كانت دومًا تردّد هذه العبارة وهي تشعر بالألم والحزن الشديدين، وكأن الزواج هو الخيار الوحيد في الحياة للإناث. كما أنها قالت لي أن والدي نادم أشدَّ الندم ويشعر بالذنب بسبب كل ما حدث لنا، ويرغب بتعويضنا عن ما مضى، أو بمعنى أدق، تعويض من تبقى منا على قيد الحياة، أصدّق والدتي... والدليلُ المكالمةُ الهاتفيةُ التي أجراها والدي معي ذاك الصباح قبل عودتي، بصوت مختنقٍ، وأنفاس متقطعة ، لم أكد أعرف صوته، ولم يستطع سوى قول كلمة واحدة فقط..

●تعالي بابا، تعالي...

تكلَّمَ وأخيرًا، بعد سنواتٍ طوالٍ من الصمت المطبِق الذي كان يتغذى على أوجاع روحه، أجهشنا بالبكاء كلُّنا، كانت المرة الأولى التي أستطيع بها تمييز شعوري بالحزن منذ أن غادرت مع سالم، ولفترة طويلة لم أستطع تمييز ما أشعرُ به تجاه الأشياء والأحداث وكل ما حدث معي في غربتي...

حالة من التَّبَلُّد هو كل ما كنت أُحِسُّه، عدم المبالاة بأي شيء حدث أو قد يحدث، استسلام تام، كانت تلك المكالمة بمثابة طوقِ النجاة، صفعة الحياة التي أيقظتني على واقعي البائس، (ارجعي يا ابنتي)، لم أكن أعلم أن

عشر سنوات من العذاب كانت ستنتهي بكلمة واحدة فقط.. هل كانت تستحق كل هذا العناء؟

تركت ملابسي، وحاجياتي، تركت أدوات زينة ما استخدمتها قط.. قمصان نوم حريرية ما لامَسَتْ جسدي المتهاوي، وكرهت النظر إليها.. حياة زوجية لم أعشها قط، أكره الزواج، وأكثر ما أكره هو سالم..

وأخيرًا فررتُ منه، استطعت للمرة الأولى التحرر من حب يضيّق عليَّ الخناق ويحكم قبضته حتى أبقى أسيرة له مدى الحياة، أكره سالما، وحب سالم، حبه الذي استنزفني، حبه الذي كان يقتات على شبابي وصباي، حبه الذي أكره وبكل ما أوتيت من قوة.. غادرت ولم أنظر ورائي قط.. ولم أفكر بسالم قط.. غادرت بسبب الخوف، أخاف من لعنة موتٍ مجهولةٍ تطاردني طوال حياتي، وتمنعني من الفرار منها، لمَ لا أخاف، وقد نال من إخوتي من قبلي، ويبدو أنه يسعى للنيل مني...

كان والدي قد أخبرني عبر المكالمة الهاتفية بكل التفاصيل المتعلقةِ بالعلاج، إنه الحل الأنسب، يجب أن أُعالج، وعدني بأنه لن يتركني للموت مرة أخرى، وأهم ما قال، أنّه لن يهتم لكلام الناس وآرائهم، سيمسك بيدي، ويأخذني إلى الشفاء مهما كلَّف الأمر، لم تعد أصوات الناس تعنيه، لا يهمه سوى بقائي على قيد الحياة، بكى كثيرا.. كانت كلماته صادقة، كنت أستشعر ذلك، وأُحسه بين نبرات صوته، كان يتعذب بصمت، كان يرغب بالسلام الداخلي، بتعويض نفسه عن المعاناة التي شعُر بها كل تلك السنوات جراء ما حدث لأبنائِه... كان مذنبًا، كان مذنبا ولا بد للمذنبين من سبيل للخلاص..).

(حُلْم)

نظرتْ نرجس إلى الخارج من خلال النافذة المغلَقَة وحَدَّثَتْ نفسها:

(ستزول الشمس قريبا، أكره المساء، أكره هذا المكان، أكره ما آلتْ إليه الأمور، وأكره سالما الذي أوصلني إلى كل ما أنا فيه... سأتمشَّى قليلًا في الرواق، لا أريد أن أفكّر بالماضي).

كان باب غرفتها مفتوحًا، والمكان يبدو خاليا من أي أحد، خطت نرجس بعض الخطوات في المَمَرّ الطويل والذي يصل بين جميع غرف المرضى، وتوقَّفَتْ متعجبة حين رأت أحدهم يستند بظهره إلى الجدار ويعبث بهاتفه المحمول، اقتربت أكثر لتتأكد من ملامح وجهه..

- أحمد.. هل أنت أحمد...؟

اقتربت منه ، محدِّقة فيه...

- هذا أنت بالفعل. كيف حالك؟

توقف عن العبث بهاتفه المحمول ونظر إلى الأسفل:

- بخير، بخير..

ويعود للعبث مرة أخرى في هاتفه وقد قَطَّبَ حاجبيه:

- و.. سالم؟ هل هو معك؟

- سالم؟ لا، لا.. لقد عدت إلى الديار بمفردي...

- هل يعلم سالم أنَّك هنا؟

- لا بد أنه علم.. لماذا؟

- إذن، لا بد أنه عاد، عليه أن يتلقى العلاج أيضا..

- ربما، لقد كان سعيدًا، كانت له حياة أخرى، تختلف عن الحياة الزوجية التي تجمعنا، وأظنُّه كان سعيدا بذلك، وأظنك كنت تعلم ذلك أيضا.

- لا أعلم، نرجس، لم تبد السعادة عليه يومًا، بدا وكأنه يحاول جاهدا إسعادك دون جدوى..

- اسمع، أحمد، أنا لا أريد أن أخوض شجارًا الآن، يكفي ما تسببت لي من ألم...

نظر إلى الأعلى وزفر من فمه بقوة..

- أنا لم أقصد... أنا آسف.

نظر إلى هاتفه متظاهرًا بالانشغال... ثم انتهى من هاتفه وقال دون أن ينظر إليها:

- سأذهب!

سار في الرواق الطويل مبتعدا، سارت نرجس خلفه..

- أنا آسفة... لم أقصد تحميلك ذنبًا ليس ذنبك، لا بد أنك تتألم كثيرا، وأريدك أن تعلم أنني كنت لأقبلك كما أنت لو كنت علمت منذ البداية.. لو كنت بالفعل تقرَّبت مني بهدف الصداقة، وليس بهدف استغلالي، كنتَ صديقي الوحيد، كنت أحمل لك الكثير من المشاعر الجميلة، كنت أظنك تبادلني المشاعر ذاتها، أحيانا كنت أظن أنني أحبك، وأنني أكتفي بك، لم أكن أتخيَّلُ أنني تعرضت للاستغلال من قبلك أنت، وثقت بك كثيرا... كنت الأقرب إليّ...

توقف أحمد أمام أحد الغرف وتوقفت بالتالي نرجس أمامه.. نظر لبرهة إلى الأرض ثم نظر بجِدَّة في عينيها مباشرة...

- أحببتك أيضا، نرجس... قد لا تصدقين ولكنها الحقيقة..

يصمت قليلًا بينما يتابعان السير في المَمَرّ ثم يقول:

- كل ما كنت أتمناه في هذا العالم هو حب سالم، ولكنه بدلًا من مبادلتي مشاعري، كان يحبك أنت... أنت... لم تستحقي حب سالم!

قال جملته الأخيرة بشيءٍ من الانفعال... وقفت نرجس، وقد اغرورقت عيناها بالدموع...

- ماذا تقول؟

- أقول أنك لم تستحقي حب سالم، وتسببتِ له بالكثير من الحزن.. لو كنت أنا معه لأشعرته بالسعادة ولاهتممت به...

- أحمد....

أجهشت بالبكاء... وقف أحمد، اقترب منها.. ابتسم بخبث...

- نعم...

- أنت وغد حقير....

- لو كنت أعلم أنك ستخلفين سالم وراءك لكنت بقيت من أجله...

- ولكن لسوء حظك أنك الآن هنا معي أنا..

يضحك بصوت عالٍ، وتعود نرجس مسرعةً من حيث أتت تبحث عن غرفتها على الجانب الأيمن من المَمَرّ الممتد، تدخل الغرفة مسرعة وتغلق الباب بقوةٍ، تضع كفيها على أذنيها وتجلس خلف الباب أرضا، تضع رأسها بين ركبتيها، وقد ملأ أحمد المكان بصدى صوت ضحكه...

ترفع رأسها، تنظر حولها...

- هل هذه حقا غرفتي؟...

صداع شديد شَعُرَتْ به، تمعن النظر متأملةً المكان المحيط بها... سريرها الخشبي المُزَيَّن بالكثير من الوسائد المنفوخة باللونين الأصفر والبرتقالي، ستائر تحجب شمس الظهيرة بنفس الألوان، بالإضافة إلى اللون الأحمر، المنضدة الصغيرة بجانب سريرها وها هي بعض الحبوب في علبتها مُخَبَّأَة، والبعض الآخر تناثر أرضا، والكرسي الخشبي الهزاز المغطَّى بقماش أحمر اللون...

- نعم بالتأكيد، هذه هي غرفتي الدافئة الجميلة التي أحب في أمريكا..

استنشقت بعض الهواء، واستلقت على سريرها الناعم، أغمضت عينيها باطمئنان...

يفتح البابَ سالم، ويدخل الغرفة متجهّم الوجه.. تنهت نرجس لدخوله، فاستيقظت سريعة...

- سالم، حبيبي سالم...

- حبيبي؟ (ويبتسم) منذ مدة طويلة لم تناديني بحبيبي...

- لقد حلمت حلما مزعجا، حلمت أنني غادرت، وعدت إلى البلاد وحدي من دونك كان حلمًا مزعجًا...

يجلس بجانبها على السرير مبتسما، سعيدا..

- ماذا أيضا؟

- و... أحمد... كان معي...

ينهض سالم منزعجا، يزفر بقوة...

- أحمد... أحمد... أحمد... أخبرتك سابقا، لا يجب أن تتعلَّقي به، أحمد ليس كما تظنين...

- نعم أعلم ، لقد علمت مؤخَّرًا...

- لا، لا... أنتِ لا تعلمين شيئا... ألا تثقين بي؟ كم مرةً عليّ إخبارك بأن أحمد مخادع.... وعليك عدم الوثوق به؟...

- لقد عرفت كل شيء، وأعدك أنني...

- لا أريد أية وعود....

ويخرج من الغرفة غاضبًا يشعر بالحنق والغضب الشديدين...تقف نرجس محاولة اللحاق به، إلا أنّ انعكاس مظهرها في المرآة يستوقفها، تقف لبرهة تتأمل نفسها، وتتفحصها...

- يبدو اليوم وجهي مشرقًا، أبدو كما كنتُ في السابق قبل الزواج...

خرجت من غرفتها ولكن سالم كان قد غادر الشقة، خرجت هي الأخرى من الشقة، تقدمت خطوات قليلة باتجاه شقة أحمد المشرعة الباب...

تطرق الباب دون انتظار الإجابة وتدخل...

- أحمد.... أنت هنا؟

وتتبع صوت ماكينة الخياطة وتستمر بالتقدم إلى أن تصل إلى الركن الزاوي الذي يجلس فيه أحمد مُنْهَمِكًا في العمل على قطعة قماش..

- أحمد..

يتوقف في الحال ويلتفت إليها بانتباه، وقد ابتسم ابتسامة عريضة، تَنَبَّأَ بسعادته لرؤيتها...

- نرجس، أهلا، أهلا...

- كان الباب مفتوحا... و...

- نعم لا بأس، الطقس اليوم حار جِدًّا... فكرت في ترك الباب مفتوحًا، عله يدخل بعض نسمات الهواء.. ولكن يا لجمالك..

يتأملها ببطء...

- تستمعين لنصائحي جَيِّدًا وتطبقينها... جميلة هذه التنورة التي ترتدينها، لا أحد يحب الفتيات ببنطلونات الجينز، بنطلونات الجينز لا تليق إلا بالشباب، الشابات ليس عليهن إخفاء ساقهن.. وشعرك الأملس يبدو جميلًا جِدًّا... لا أعلم كيف كنتي تحتملين نفسك سابقا بشعرك المُجَعَّد..

- نعم صحيح... أنا فقط... كنت أترك شعري مُجَعَّدا لأن سالما كان يحبه هكذا..

- هههههه، ربما سالم لا يريد أن يجرح مشاعرك بانتقاد مظهرك.. تعالي لغرفة النوم، اجلسي أمام المنضدة، أريد أن أضع لك بعض مساحيق التجميل..

- لا، لا، أحمد، لا أريد ، لا أحب الماكياج ولا سالم يحبه..

- سنجرب إذن، وإن لم يعجبك سأقوم بإزالته على الفور.

ويذهبان سويًّا إلى غرفة النوم... تجلس على الكرسي في مقابل المرآة ، ترجع رأسها إلى الوراء، تغمض عينيها وتستسلم له بالكامل...

- ممتاز، هذا جيّد، أنت فتاة مُطيعة... سأجعل منك شيئًا مميزًا..

- ولكن أرجوك لا تضع الكثير، سالم لا يحب المكياج أبدا..

- لا تخافي، أنا متأكد أن سالما سيعجب بك بعد أن أنتهي...

يبدأ أحمد بوضع مساحيق التجميل على وجهها وهي مستسلمة ليده، يعبث بوجهها... بملامحها... ربما بحياتها...

- نرجس...

- ماذا، أحمد؟

- بأمس... لقد رأيت رجلًا يخرج من شقتك بوقت متأخر...

- آه.. إنّه صديق لسالم..

- وهذه ليست المرة الأولى، في الحقيقة أنا ألاحظ هذا الأمر كل ليلة..

- نعم أخبرتك، هؤلاء هم أصدقاء لسالم..

- أتمنى أن يكون صحيحا، فالأخبار تنتشر بسرعة كبيرة...

- أية أخبار؟...

- في الحقيقة، يقول البعض، أن... أنكما تعملان في مجال الدعارة... اسمعي... اعلم أن هذا ليس من شأني... ولكن، إن كنت أو سالم بحاجة للمال بإمكاني إقراضكما...

- نعم.. شكرًا لك ، ولكن الأمر ليس كما تظن...

توقف أحمد عما كان يفعل، مسح جبهته ورأسه بيده، يحاول إخفاء غضبه وغيرته الشديدتين، يحاول إخفاءهما بصعوبةٍ بالغة..

تفتح عينيها وتنظر إلى أحمد...

- صدِّقني... كما أخبرتك..

- لا أستطيع تصديقك، بأمس لم أستطع النوم... وكل ليلة لا أستطيع النوم.... أنا لست سعيدًا بمشاعري هذه التي تزداد يوما بعد يوم، أنا أتعذَّب، نرجس، أتعذَّب.... هذا الحب يقتلني... لا أستطيع... لا أستطيع....

تنظر إلى باب الغرفة، وإذا بسالم واقفا متأملا ما يحدث...

- سالم.... الأمر ليس كما تظن... لا شيء بيني وبين أحمد...

يذهب سالم، وتذهب نرجس وراءه ولكنه كان قد ركب المصعد وغادر مسرعا... تعود إلى شقة أحمد مسرعةً وغاضبة...

- أرأيت، ماذا سيظن الآن؟

نظر إليها أحمد بابتسامةٍ عَلَتْ وجهَه... يلتزم صمتا...

تنظر من خلال باب غرفة النوم المفتوحة إلى المرآة في الداخل... تقترب أكثر... تتأمل وجهها وقد لطخ بالكامل بمساحيق التجميل... الشفاه بلون أحمر فاقع تبدو أكبر حجما... والعينان غائرتان وحولهما هالتان من السواد الممزوج بالأخضر الحشائشي ، وما بينهما من وجنتان لطختا بدائرتين حمراويين...

- ماهذا القبح يا أحمد.. ماذا فعلت بي؟

- لم أفعل بك شيئًا، أنتِ من فعلتِ بنفسك هذا.

يقف وراءها ينظر إليها من خلال المرآة، هذا القبح هو أنت، سالم غادر بسبب قبحك..

تنهار نرجس باكيةً، تجلس على الأرض وتلوث وجهها، تختلط دموعها بألوان وجهها ، ثم تخفي وجهها بيديها... وتبكي بحرقة وألم....

تتوقف عن البكاء، ترفع رأسها، تنظر أمامها، تتأمَّل حولها...

- مستشفى؟ نعم هذه هي غرفتي، هذه هي وحدتي، وها هو كتابُ حياتي الذي تركته لي وردة بالأمس!

(ربيع)

كان أخي ربيع خجولًا، عاطفيًا، انطوائيًّا، عرفته هكذا منذ الحادثة، ولا أذكر كيف كان قبلها، وقد بدأت معاناته مع الوسواس القهري أو ازدادت حدة، بعد حادثة أختي وردة، فقد امتنع عن مصافحتها، وكان يشعر بالقَرَفِ من مظهر جلدها، وكان يستيقظ كل ليلة فزعا بسبب الكوابيس التي يراها في منامه، ثم ازدادت حالته سوءًا بعد وفاة ياسمين.

كان يخاف النومَ، كان يخاف الموت، وأي شيء قد يؤدي إليه، امتنع عن تناول أغلب ما نأكل، كانت أدوات التنظيف تملأ غرفته فقد كان يقوم بتعقيمها عشرات المرات كل يوم وكان يغسل يديه ويستحم أكثر من مرة خلال اليوم حتى أنه كان يغسل ملابسه بنفسه مما كان يُثِير جنون أمي وحنقها، وقد كان لا يذهب إلى أي مكان خارج المنزل بعد الانتهاء من ساعات الدوام في العمل، حتى أنه في أحد الأيام، كان واقفًا على الرصيف فترة طويلة من الوقت وكان يشعر بالذعر الشديد ولم يستطع عبور الشارع، اتصل بوالدي ليهرع إليه ويساعده.

تقول والدتي، أنه وعند عودته إلى المنزل ذلك اليوم، انفرد بنفسه في غرفته، أجهش بالبكاء، ولم يهتم إن كان بابُ غرفته مفتوحًا أو لا، لحقت به والدتي، أغلقت الباب، وجلست بجانبه والدموع تنهمر من عينيها، فقد استحال ربيع حياتَها إلى خريف على وشك الانقضاء سريعًا، لم تعرف كيف تتصرف، فقدت حكمتها، وشعرت بالعجز الكامل، وليست المرة الأولى التي

تشعر بها بالفشل، فماذا تعني الحياة بالنسبة إلى أم تفقد أولادها على التوالي دون أدنى قدرة منها أن تمنع ما يحدث؟ هي تعلم أن للصمت ثمنا!

نعم، تعلم، وليس كل سكوت هو علامة رضا، فأكثر السكوت هو ضعف... جبن... استسلام... موت بطيء تسلل وتسلسل منذ المرة الأولى، رافضا الصفح..

نهضت والدتي من مكانها بجانب ربيع، وجلست على الكرسي المقابل للمرآة، راقبت انهمار دموعها... وبدأت حديثها مع ربيع:

- ربما... ربما أكون أنا السبب في كل ما يحدث... وأعجز عن تقديم المساعدة، سامحني..

توقف ربيع عن البكاء، وشعر بالتأثر الكبير، فهي المرة الأولى التي تتحدث بها والدته إليه منذ أن ازدادت حالته سوءًا، كانت تتجنب هذا النوع من الأحاديث، ربما كانت تخاف من إلقاء اللوم عليها، أو ربما لأنها كانت تيقن بالفعل بأنها المسؤول الوحيد عما يحدث لأولادها، وربما لأنها كانت عاجزة عن التعبير عن مدى معاناتها، فبعض الصمت أبلغ من الكلام...

- هل تريد التحدث عما حدث اليوم؟

قال ربيع بتردّد وارتباك:

- نعم، سيسرني ذلك، كنت.... قد أنهيت عملي، وأسرعت بالنزول عبر الدرج المؤدي إلى الأسفل ككل يوم، إلا أنني كنت أشعر وكأن أحدهم يتبعني، أعلم بأنه ليش بشرًا، أقصد... أنه شيئا ما كطيف، أو ظل، لا أعلم، ولكنني شعرت بالقليل من الاختناق، وكانت ضربات قلبي تزدادُ كلما أسرعت في نزول الدرج، شعرت بالراحة عندما وصلت إلى الدرجة الأخيرة، تنفست الصعداء...

تقدمت قليلا إلى حافة الرصيف، كان بجانبي شابٌ طويلُ القامة يتلفت يمنة ويسرة، ثم أخرج من جيبه علبة سجائر وقَدَّاحة، وحين وضع السيجارة في فمه وكان على وشك أن يشعلها، عادت مشاعر الذعر تستولي عليّ.

ماذا إن أشتعل كل شيء من جراء إشعال سيجارة؟ ماذا لو كان الهواء محمَّلًا بالغاز؟ سأحترق وسيحترق كل شيء، ابتعدت قليلا وأنا أبتلع ريقي بصعوبة بالغة، أغمضت عيني بالتزامن مع ضغطته على القَدَّاحة، وأيقنت أنها النهاية، إلا أنني فتحت عيني عندما استمعت إلى صوت أحد الأطفال الذين يبيعون بعض المستلزمات المنزلية، كان قد اقترب منّي محاولًا بيع أحد الأغراض لي، أعتقد أنه كان يحمل مناديل ورقية، نظرت إلى الشاب الذي أثار الرعب في نفسي، إلا أنّه كان قد ركب إحدى سيارات الأجرة، ورحل....

لم أستطع الشعور بالأمان مع رحيله، فقد كان وجود الطفل البائع بجانبي سببًا في شعوري بالقلق من جديد، كنت أتأمل هيئته وأتساءل عن عدد الأمراض التي يحملها والتي من الممكن أن يصيبني بها عن طريق العدوى لو اقترب مني أو لامسني أو لامست ما يلمس، ربما مع أنفاسه، ستنتقل تلك الفيروسات، ربما انتقلت إليّ وأصبت بالعدوى فعلا، فقد اتضح لي أن الفيروسات هي أكبر خطر على حياة الإنسان، وهي العدو الأول، فكيف نحارب عدوًا مجهول الهوية لا نراه.

ثم استجمعت قواي وأشرت له بيدي بأن يبتعد، بعد أن وضعت يدي على فمي وأنفي، شعرت بالحرارة تسري في جسدي، وشعرت بالبلل الذي أصاب قميصي جراء التعرق الشديد، كان عليّ أن أعبر الشارع لأصل إلى الجهة المقابلة ثم إكمال المسير للوصول إلى المنزل، كنت أريد الوصول إلى

المنزل بأقصى سرعة، ولكنها كانت تبدو مهمة صعبة ومستحيلة، فلم يتوقف مرور السيارات السريعة، وقد كان البعض يعبر بسهولة لا أدري كيف، فقد كنت أشعر بثقلٍ في قدمي وخدر في أطرافي، كنت أستجمع قواي، إلّا أنني شعرت أكثر من مرة خلال هذا الموقف بأنني قد أنهار مغشيًّا عليّ على الرصيف...

وكان ما يثير قلقي في هذا الأمر هو مدى نظافة وتعقيم البقعة التي أقف عليها من الرصيف، سأتسخ لا محالة، سأصاب بالأمراض، ستجتاحني الحشرات، لا يمكن أن أسقط هنا مغشيًّا عليّ، لا بد أن أعبر الطريق. وعلى جانبي الأيسر تقدمت ثلاث فتيات أو أربعة، توقفن على بعد سيارتين مني، كن يتحادثن ويضحكن، وكانت إحداهن تمسك بهاتفها المحمول، وكانت الأخريات يشاهدن على ما يبدو مقاطع فيديو، لا أعلم لماذا فكَّرت في أضرار الهاتف المحمول، وكل تلك الموجات التي من الممكن أن تصل إليّ، سأتلوث بها، ابتعدت قليلا إلى اليمين حتى ابتعد عنهن قليلا فإذا برجل طاعنٍ في السن يقف بجانبي، ينتظر عبور الشارع أيضًا، نظر إليّ وابتسم، أدرت وجهي إلى الجهة الأخرى وعندما نظرت إليه مجددًا ابتسم لي مرة أخرى، شعرت بالغضب المفاجئ...

أمي... أريدك أن تعلمي أنني حاولت التخلص مما أنا فيه، ولكنني كنت أفشل في كل مرة، وعندما كنت أظن أنني أحرز تقدما، كانت تزداد حالتي سوءًا... أنا أعتذر عن مقدار الألم الذي أسببه لكليكما أنتي ووالدي، أصبحت عبئًا بالفعل...

- لا.... لا تقل هذا، أنت لا ذنب لك بكل مايحدث، و... لا بأس تصرف بالطريقة التي تشعرك بالراحة والأمان، ستجدني ووالدك بجانبك دوما، ولا يهمني أن أنهيت مواد التنظيف سريعًا أو احتكرتها في غرفتك... لا بأس من فعل أي شيء يشعرك بالطمأنينة..

ابتسمت، وتوقفت عن البكاء، رَبَّتَتْ على كتفِه بخفة..

أخي ربيع، لم يكن يستخدم المصاعد قط، ولا السيارات ولا حافلات النقل العام، كان يقطع المسافة التي بين البيت والمكان الذي يعمل فيه مشيًا على قدميه، لا يصافح الأغراب أو الأقارب، ويتحاشى الجلوس أمام شاشات التلفزيون أو الكمبيوتر ويتجنَّبُ سماع الأصوات المرتفعة ويخشى احتساء القهوة، والسكاكر وكل ما قد يحدث أمراضا، خوفه المبالغ فيه من الموت جعله بطريقة ما يتجنَّبُ الحياة، وقد كان هذا هو الفَخّ الذي وقع فيه...

من الغريب جِدًّا أن يكون قد أنهى حياته بنفسه، وحين سألت وردة عن تفاصيل ما حدث، رَدَّتْ بأنها سوف تبعث لي برسالة موضحة كل شيء ولكنها لم تفعل، ثم نسيت الموضوع تماما.. كنت أكره هذا الأمر.. حين أنسى رَغْمًا عنّي..

قامت نرجس بتقليب صفحات الكتاب باحثة عن الجزء الخاص بوفاة ربيع....

ثم بعد ذلك بعدة أشهر، دار جِدال كبير بين ربيع ووالده، عن حالته الصحية، وعن ما وصل إليه من نتائج، فقد ترك ربيع العمل واكتفى بالجلوس بالمنزل، بل في غرفته، ليلا نهارا، ذهب أبي إلى غرفته وجلس إلى جواره وهو يعلم مسبقًا أن ربيع سيقوم بمسح يد الباب وكل ما لمست يد

والده.. وسيقوم بغسل الملاءة التي جلس عليها والده، ولكن والد ربيع لم يهتم لذلك الأمر هذه المرة، فقد كانت حالته تفطر قلبه كل يوم، كيف لا وهو ولده الوحيد، صمت لبرهة بعد إلقاء التحية وقال له وبنبرة حادة:

- ما تفعله ليس صحيحا، حالتك الصحية تتدهور وتسوء ونحن أهلك لا نريد لك إلا العافية، وأمك المسكينة لا تفارق سجادة الصلاة، ولم تعد تفكر إلا بك، يكفيك يا بني، يكفيك، ويكفينا ما نحن فيه، أختك وردة التي تبدو الأسوأ صحيًّا، تبدو طبيعية، ومتكيّفة مع كل ما يحدث، وأنت عليك الانتهاء من كل هذا، فكلنا راحلون، وأقدارنا سنراها رأي العين، استعن بالله وتوكل عليه يا ولدي، وكما يقول المثل: (من يخاف الشر، يحدث له) يجب أن تواجه مخاوفك بنفسك، المواجهة هي الحل.

قال كلمته الفاصلة وخرج أبو ربيع من غرفة ابنه، لتكون المرة الأخيرة التي يراه فيها، فقد استمع ربيع إلى نصيحتِه وبالفعل قام بمواجهة خوفه وجها لوجه وقام بشنق نفسه صباحًا!

(الحقيقة)

فتحت نرجس عينيها فجأة، تشعر بحالة من الخدر تسيطر عليها، وثقل شديد يلصق جسدها بالسرير، لا أحد حولها... لا بد أن الجميع غادر، فكرت نرجس...

أغمضت عينيها من جديد فقد شعرت برغبة ملحة في النوم، فتحت عينيها... وإذا بوجه أحمد يكاد يلتصق بوجهها.. تنبَّهَتْ بجميع حواسها... ابتعد أحمد، ونهضت من سريرها واكتفت بالجلوس عليه، نظرتْ حولها، علها ترى والدتها أو أختها... لا أحد.. سوى أحمد يجول الغرفة ذهابًا وإيابًا أمام سريرها، وقد كان في حالةِ قلقٍ شديدةٍ وكان يتصبب عرقا...

قالت نرجس وقد أحست بثقل وصعوبة في نطق الأحرف..

- أ... ح... م... د

توقف، ونظر إليها بقليل من الاطمئنان..

- كنت نائمة لفترة طويلة، حتى ظننت أنك فارقت الحياة..

- أكاد أشعر بالموت، شيئًا يدفعني للنوم بقوة، أليس النوم إحدى حالات الموت...

- كنت... كنت.... أخشى أن لا أستطيع رؤيتك مرة أخرى... كنت أريد إخبارك... بأن...

- ماذا؟

جلس بجانبها على حافة السرير، وتبدَّدَ قلقه بالكامل، فهو على وشك إخبارها بما حدث بينه وبين سالم بعد مغادرتها...

- التقيتُ سالما، بعدما حدث ما حدث... قمت بالذهاب إلى الشقة للبحث عنك، لم أجدك... أريد أن تعلمي أنني شعرت بالغضب لما حدث، لم أَشَأْ أن أؤذي مشاعرك بأي شكل من الأشكال، شعرتُ بحالة سيئة من تأنيب الضمير... عندما غادرت... كنت أريد إدراكك فقط لأخبرك بأنني... ربما....

ويصمت، بعدما تلعثم أثناء قول الجملة الأخيرة...

تنظر إليه نرجس مصدقة... ربما هي احتاجت أن تسمع ما قال لها، كان مدينا لها باعتذار وأكثر...

- لا بأس، أحمد... كلنا أخطأنا...

قالتها على سبيل المجاملة، وعادت للصمت من جديد...

- لا، نرجس.... أنا.... أنا أحبك... يومها فقط علمت ذلك...

ابتسم ونظر إلى سقف الغرفة، ثم في عينيها مباشرة...

- ربما... أنت فقط... أسأت تفسير مشاعرك تجاهي كما كان ينتابني بعض المرات عندما كنا سويا...

- في تلك اللحظة كنت... لأول مرة أشعر بالكراهية تجاه سالم...

تقول نرجس مقاطعة:

- التقيته؟ هل التقيت (سالم)؟ ماذا حدث بينكما بعد ذلك؟ ماذا حدث؟ ماذا حدث لسالم؟ أخبرني، ماذا قال؟ ماذا فعل؟ أين هو الآن؟ أخبرني؟....

يصمت قليلا... ثم يقف، ويخطو بضع خطوات مبتعدا...

- إذن،... شفائي من حب سالم ليس مهما... وكونك السبب فيه أيضًا ليس مهما... كل ما يهمك هو سالم...

ينظر إلى الأعلى وقد شعر بشيءٍ من خيبة الأمل، يستدير وينظر إليها، نظرة حب ممزوجة بِلُؤْم..

- نعم، التقيته في المصعد، كنت قد ذهبت إلى شقتك للبحث عنك، فلم أجدك، وأثناء نزولي في المصعد، كان سالم ينتظر المصعد في الأسفل، عندما فتح الباب ورأيته لم أستطع تمالك نفسي، وقمت بسؤاله عنك، كان يبحث عنك أيضًا، يبدو أنه كان بالقرب من المكان حيث غادرت، وتماما كما حدث معي، لم يستطع اللحاق بك، فظن أنكِ في الشقة، أخبرته أنكِ لست موجودة، لم يصدقني، دخل المصعد، وبقيت في داخله، صعدنا سويا... لم نتحدث في المصعد، تبادلنا بعض النظرات مطوَّلًا... كان سالم مختلفا عن كل مرة... كانت عيناه مليئتان بالشر، والحقد والكراهية!

حسنا... قبل حدوث هذا كله، قبل اتصالك بي، كنا أنا وسالم في الملهى الليلي، الذي بدأتُ في العمل فيه منذ مدة ليست طويلة، كان قد علم أنني سأترك العمل فيه، عملت فيه نعم، ولكنني لم أكن سعيدا.. كما أنَّ شيئا ما كان يحدث في داخلي، كان شعورا قويا، مختلطا... أحببت سالما حد الجنون أعترف بذلك، ولكن أحببتك بالقدر نفسه، إلى أن وصلت إلى المرحلة التي لم أعد أميز بها، أيكما أحب أكثر، حبك أفسدني... حبك أفسد طبيعتي، لم أكن قادرًا على إتمام عملي بشكل جيد في الملهى، قررت ترك العمل، سالم غضب، كثيرا... كان يشك بالأمر، فقد تقدم بعض الزبائن بالشكوى، بسبب سوء

أدائي، علم سالم على الفور أنني أتبدّل، خضنا شجارا يومها، حذَّرني من الاقتراب منك، هو أيضا شعر بالخذلان، وربما بالخيانة!

لم أعلم إن كان يشعر بالغيرة منك أو عليك، ولكنني كنت أعلم أنني كنت بنفس موقفه، أتفهمه، أتفهمه تماما... وأعلم أن مقاومتي كانت مُرْهِقَةً بالنسبة له، فطوال ثلاث سنوات، قمت بمحاصرته جَيِّدًا، هو أيضا كان بحاجة لوجودي بجانبه، ولكن كان عليه الرفض دوما، كان عليه أن يقاوم، أحيانا.... وأشدد على قول أحيانا حتى أطمئنك، كنت أظن أنه يحبني بالفعل، ولكنه كان مضطرًا أن ينكر ذلك أمام نفسه أوَّلا... أتعلمين... مواجهة نفسك بحقيقتها هي أصعب ما يكون، ربما سالم كان يعيش على غير حقيقته، ربما اعترافه أمام نفسه بحبه لي هو دليل على فشله في مقاومة طبيعته التي لطالما أخفاها عنك وعن الجميع...

تقول نرجس مقاطعة، وقد سالت دموعها بكثرة:

- هراء... أنت كاذب... سالم كان سويًّا... ولم ينشد حبك كما تَدَّعي، وأنا كنت ولا أزال الوحيدة في قلبه...

يضحك أحمد بصوت عالٍ، وبشكل متواصل...

- توقفْ... توقفْ عن الضحك... أحمد... أحمد...

- ماذا؟ مؤلِمة الحقيقة هاه.... الحقيقة دوما مؤلِمة... في نهاية الأمر علينا تقبلها...

- ليست حقيقة... أنت كاذب...

يسحب كرسيا من جانب الحائط ويضعه أمامها ويجلس عليه بشكل عكسي..

- ليس لدي أي هدف من خداعِك، أنا فقط أخبرك بالحقيقة، التي عجزت عن معرفتها بنفسك... و سأكون صريحًا معك، سالم.. أحبني أنا... ومنذ اليوم الأول... وليس هذا فقط، بل إنه كان يلاحقني بنظراته دوما، وربما هذا ما أشعل حبه في داخلي...

- أنت واهم كاذب...

يضحك بصوت عالٍ، وينظر إلى السقف، وكأنه يشعر بلذة الانتصار، ويطيل الضحك إمعانا في إغاظتها.. ثم يتحول ضحكه إلى بكاء بعد قليل...

- لا أعلم... لماذا كان عليه احتمال هذا العذاب من أجلك، فأنت لا تستحقين حبه...

- أحمد... أنت تعمد إلى إيذائي... توقفْ عن جرح مشاعري، كنت توًّا تقول أنك تحبني..

- كاذب.... كاذب أنا، أتلاعب بك، أختبر مشاعرك وأحاسيسك، تجاهي وتجاه سالم، فأنا أعلم أنك أنانية وضيعة، ولو كان سالم يهمك لكنت تركته من أجلي، لينعم بحبي أنا، لكنت أفنيت نفسي في إسعاده...

تتوقف نرجس عن البكاء، وتشعر قليلا بتأنيب الضمير، وتفكر مليًّا فيما يقول... وتستمع إليه بترقُّب... ثم تقول وكأنها تؤكِّد لنفسها..

- كان يحبني، لذلك فَضَّلَ البقاء معي...

- لا... أنت واهمة ياعزيزتي... كان مجبَرًا على البقاء معك، مضطَرًّا، أما بالنسبة للحب فقد كان مأخوذًا تمامًا بي..

- أنت واهمٌ كبير...

- حسنا... ماذا لو أخبرتك بأننا أقمنا علاقة...

تُمْعِنُ نرجسُ النظرَ إليه ، غيرَ قادرة على التصديق...

- كاذب... كاذب... توقف عن الكلام... توقف... اخرج من غرفتي، اخرج...

يقف أحمد متأَهِّبًا للخروج، ينظر إليها بإمعان، ثم يستدير باتجاه الباب، تستجمع قواها وتقف نرجس، وتناديه:

- لحظة...

يتوقف أحمد ويمكث بمكانه دون حراك..

- أخبِرْني أرجوك متى حدث هذا؟

يستدير ويعود للجلوس على الكرسي معتدلا بعدما أداره باتجاه السرير، تجلس نرجس بدورها، مترقِّبة، نافدة الصبر..

- سأخبرك... حدث ذلك عندما كنت بالمستشفى، بعد إسقاط جنينك..

- نعم... كان سالم حزيناً أشد الحزن، وبقي بجانبي طوال الليل مستيقظًا، وعندما أتيت لزيارتي، ورأيت التأثر في عينيك، شعرت بالكثير من الامتنان، بل... شعرت.... لا أعلم... كانت هيأتك غريبة... أتذكر ردة فعلك عندما أخبرتك بحملي... لم تقل شيئًا... لزمت الصمت طويلا، وعلامات الصدمة والاندهاش كانت بادية عليك بوضوح مما أثار استغرابي... ثم... إنك قلت لي: (مبروك) ببرود تام... وبعد ذلك... في الأيام اللاحقة وطوال الخمسة أشهر، كنت تتحاشى لقائي، و... أحيانا كان يخيل إليّ أنك تنظر إلي بكراهية شديدة... أحيانا وعندما كنا نلتقي مصادفة، كنت تُحَمْلِقُ في جنيني بنظرة غريبة، لم أستطع إيجاد أي تفسير لها آنذاك...

يبتسم قليلا..

- شعرت بالغيرة الشديدة....

- هذا تفسير منطقي، تألمت... كنت أرغب بإنجاب ذلك الطفل بشدة.. وأعلم أن سالما لم يسعد بخبر حملي، ولكن في الوقت نفسه لم يحزن، غضب قليلا... ثم، تقبل الفكرة، بل وأعجبته... اعتنى بي جَيِّدًا ، كان يعد لي فطوري باكرًا قبل ذهابه العمل، وكان يتصل بي عدة مرات خلال اليوم، وكان يخفف من إعطائي جرعاتي بشكل تدريجي، كاد الأمر ينجح، كاد ينجح بالفعل.. ذاك الجنين كان يمدني بالحياة، كان سببا يدفعني للبقاء يوما بعد يوم... كنا أنا وسالم أكثر حرصًا على الحياة من أي يوم مضى، كان سالم سعيدا...

- وأظن، أن هذا الأمر كاد يصيبني بالجنون.. فعلى الرغم من أنني كنت أشعر بالحزن على سالم بسبب تعاسته التي عاشها معك، إلا أن فكرة أن يحيا بسعادة معك أنت كانت الأكثر حزنا...

- إذن، لا بد وأنك كرهتني وبشدة...

- أكثر مما تظنين... كم كنت أتمنى أن تقضي بجرعة مخدر زائدة مثلا...

- أستطعت إخفاء مشاعرك تلك جَيِّدًا، هاه... كان عليك امتهان التمثيل، كنت ستنجح بالتأكيد...

- ليست غلطتي، الحب يدفعنا للقيام بأي شيء، ألست من تناول الحبوب المخدرة من أجل الحب...

- صحيح، فعلتها وندمت... ولكن على الأقل حبي كان شرعيًّا حلالًا..

- وحبي أيضا....

- لا، حبك كان حراما..

- حسنا... الحب بحد ذاته ليس حراما... فكيف يكون حرامًا وليست لدينا القدرة على اختياره، أو على الخلاص منه؟ الحرام هو كيف نتصرف بالحب، كيف نتعامل مع مشاعرنا تجاه من نحب..

- بلى، الحب حرام، فالمعذبون بالحب وحدهم يحق لهم البكاء، فلا تعرف مصائرهم، معذبون في حياتهم الدنيا وفي حياتهم الآخرة... الحب هو الضعف، والإذعان، هو تسليم روحك لشخص آخر طواعية... إذن... كيف ستحاسب عن نفسك ما دمت أسلمتها إلى الشخص الآخر؟

يقف أحمد ويتقدم نحوها قليلا، يتردَّدُ ثم يجلس على السرير بجانبها...

- أنا لم أقصد أن أفعل ما فعلت، ما حدث قد حدث رغما عني... كنت ثملا.. وفي حالة من الحزن الشديد، عندما اتصلت بي لتخبريني بفقدان الجنين، شعرت بالحزن على سالم، وعليك، نعم عليك... ثم شعرت بالغضبِ تجاه نفسي وتجاه مشاعري السيئة التي كنت أشعر بها تجاه الجنين، كنت أحمل نفسي جزءا من المسؤولية، بسبب المشاعر السيِّئة التي كنت أحملها، لذلك!

هرعتُ إلى المستشفى على الفور، كنت أريد أن أكون بجانب سالم، لأخفف عنه حزنه، أنا لم أحتمل أن يكون سالم حزينا... فكيف لو كنت المتسبب بذلك... عدة أمور كنت أشعر بها بالوقت نفسه، الحب والكراهية، الغضب والرضا، صراعات كبيرة كانت تحدث في داخلي، وبعد أن غفوت، غادرنا إلى شقتي، كنت أريد أن أُرَفِّهَ عن نفسه ليس أكثر، وظننت أن تلك

الطريقة كانت الأنسب، ولربما كنت قد أقنعت نفسي بأنه بحاجة لهذا الأمر بل ويفتقده.

كان سالم حزينا، وكانت أكثر المرات التي أراه بها حزينا... جلس على الأريكة مُنْهَكًا مستسلما، جلست بجانبه تماما، وأمسكت برأسه وضممته إلى صدري، فبكى... بكيت بدوري... لا أعلم إن كان بكائي حزنًا على حاله، أم كان فرحا لوجوده في تلك اللحظات معي؟ وأخيرا... وبعد طول انتظار، كانت كلحظة النصر المنتظرة، وكنت أرغب بجعلها مثالية، فلا شيء يهم بعد الآن، سالم معي الآن، فلتتوقف الحياة، لا شيء كان مهما قبل تلك اللحظة ولا أهمية لما سيحدث بعد ذلك...

توقَّفَ أحمد عن الكلام، ونظر إلى نرجس وهو يشعر بالاستياء والحزن، وربما بالزهو والإعجاب بالنفس، كانت نرجس تستمع باهتمام ولم تقاطعه ولا مرة، وكان أحمد قد لاحظ أن وجهها كان أحمرَ وكانت تشعر بالحنق والغيظ الشديدين... إلى درجة أنها لم تستطع النطق بكلمة..

- نرجس... أنفك.. يسيل الدم من أنفك...

تمالكت نفسها، واستطاعت كظم غيظها، وكانت نبضات قلبها وأنفاسها تتسارع بشدة، استمرت بالتحديق في الأرض، ولم تنظر إليه..

- لا شأن لك بأنفي أو بدمائي...

أمسك منديلا وناولها إياه، إلا أنّها لم تأخذه، لم تنظر إليه ولم تحرك ساكنا، تذكرت ذلك اليوم الذي تحدث عنه، وكيف جاء إليها سالم عصر اليوم التالي، وكان شارد الذهن، متقد الحواس، ربما أثار النشوة كانت بادية عليه، وكان يخفي ابتسامة رضا خلف وجهه، حتى أنها بادرتْه بسؤاله عن

مكان تواجده الليلة الماضية، إلا أنه لم يجبها مطلقا، واكتفى بإخبارها، بأن لا شيء يستحق الحزن والألم وإن كان هذا الشيء هو فقدان ابنه، بل على العكس تمامًا، عليهما النظر إلى الأمور من ناحية إيجابية، فماذا لو كان الطفل سيجيء غير مكتمل النمو مريضًا، لا بد لهما من إكمال محاولة العلاج، ثم محاولة الإنجاب مرة أخرى في مرات لاحقة...

- إذن.... قمت بإغوائه وجعلته على شاكلتك...

قالت جملتها ونظرت إليه بكُره وحقد كبيرين...

- لم أقم بأغوائه، مشاعرنا كانت متبادلة، كلانا كان يشعر بالانجذاب لبعضنا البعض..

- كان سالم سويا... أما أنت... ما تكون أنت سوى مَسْخٍ...

ابتلع ريقه بصعوبة... ونظر إليها بتحدٍ وكبرياء..

- حسنا... كلانا نعلم أن سالما كان يعمل بالدعارة، معاشرة الرجال مقابل كسب المال كانت مهنته...

تقاطعه...

- كانت مهنته، صحيح، وليست طبيعته، وهناك فرق بين الاثنين، كما أنها كانت مهنة مؤقتةً كان يحاول حمايتي... حتى لا أضطر إلى أن أعمل أنا بدلا عنه... هذه كانت تضحيةً وألما كبيرين قام بهما من أجلي أنا... من أجل حبي...

- وبعد كل هذا قمتِ بهجره، وتركتِه وحيدا بائسا.... لم تستحقِّيه يوما... كنت وحدك السبب في تعاسته...

- أنت كاذب حقير... اخرج من غرفتي، لا أريد رؤيتك مجدَّدًا.... وَأَتَعْلَمُ أمرا... لا أصدق كلمة مما قلتَ...

ينهض أحمد ويخطو بعض الخطوات باتجاه الباب... ثم يستدير وقد امتلأ غضبا وألما...

- نعم... مواجهة الحقيقة صعبة دائمًا.... أنت لم تحاولي يوما معرفة الحقيقة، تغاضيتِ عنها تماما... تجاهلتها....

- الحقيقة هي أَنَّك كاذب مخادع...

- فادي.... اسألي (فادي)...

- من فادي؟ صديق سالم؟ وما شأنه بهذا كله؟

- فادي كان يعلم...

ويقترب منها، وقد خَفَّتْ حدته وكانت عيناه تلمعان، واكتست نبرته شيئا من الحزن..

- فادي كان يعلم عن علاقتي بسالم...

- لم نتحدث مع فادي منذ مغادرتنا البلاد..

- وأنا اتحدث عن تلك الفترة...

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنني وسالم... كنا على علاقة، قبل زواجكما، هذه هي طبيعة سالم كما هي طبيعتي.... وكانت علاقتنا حقيقية وقوية، إلى أن.... إلى أن ظهرتِ أنتِ في حياته... لم يحبك يوما، كان يحاول حمايتك ليس أكثر...

- لحظة لحظة.... سالم كان يلاحقني، كان معجبًا بي، وهو من بدأ العلاقة، كان يلاحقني بنظراته أينما ذهبتُ، وأحيانا كان يلحق بي إلى المدرسة ذهابا وإيابا...

- هذا صحيح، كان يحاول حمايتك...

- لم أفهم. يحاول حمايتي من ماذا؟

- حسنا.... من والده، ألم يخبرك بأنه رآه عدة مرات في طفولته وصباه يلاحق الفتيات ويتحرش بهن....

وقفت نرجس تستمع والصدمة شَلَّتْ حركتها ولجَّمتها بلجام الصمت... تذكرت (أمل) التي كان يلاحقها سالم محاولا حمايتها فيما مضى.

- يبدو أن والده كان يلاحقك، و.... ربما كنت أنت فريسته القادمة... إلا أنك لاحظت اهتمامه بك واقتربت منه.... وفي نهاية الأمر كان لا بد له أن يتزوجك... حتى يقوم بحمايتك وعلى صعيد آخر ليؤمن لك احتياجك اليومي من المخدر... أما أنا.... فكنت أفتقد إليه بالفعل... لم يكن أمامه سوى الانفصال عني.... ضَحّى بحبه وسعادته من أجلك أنت، إلا أنني لم أستسلم وقمت باللحاق به إلى أمريكا لاستعادته....

تفقد نرجس وَعْيَها وتقع أرضا....

(انتقام)

جلست ليلى في سيارتها في انتظار قدوم (أبو سالم) كما كان الاتفاق بينهما.. تشعر بالسعادة والغرور والقليل من الارتباك، فقد وقع في شباكها وأخيرًا، ومجيئه هذه الليلة لمرافقتها إلى مكان عملها، هو انتصار حقيقي بالنسبة لها...

تَأَنَّقَتْ كما لم تتأنقْ من قبل، أسدلت شعرها الأسود الطويل حرا طلقا تماما كما أصبحت تعيش مؤخرا، أحمر شفاه بلون عذرية فقدتها قبل الأوان مُبَكِّرًا، فستان أبيض اللون طويل، لعلها تكون ليلة عمرها التي انتظرتها طويلا...

وحين قدوم (أبو سالم) يلقي التحية، وَيَدْلُفُ إلى داخل السيارة، ينظر إليها بإمعان وبجرأة لم يتمتع بها المرة السابقة، قال مبادرا:

(مساء الجمال والدلال)..

ابتسمت ليلى نصف ابتسامة، وهي تشعر بالغبطة والانشراح..

- ها أنت هنا اليوم، كما وعدتني، سعيدة بقدومك... لنذهب..

تقود سيارتها بسرعة متوسطة، يتبادلان نظرات الإعجاب والابتسام، وعندما يصلان إلى الوجهة المُحَدَّدَة، تركن سيارتها في المواقف المخصصة للمكان، وتسارع للنزول فيستوقفها أبو سالم ويمسك بيدها بحركة فجائية..

- انتظري.. فلنتكلم قليلا...

- امممممم، سنتكلم في الداخل، بعد الانتهاء من فقرتي التي ستبدأ بعد قليل سنتحدث طويلا... لا أستطيع التأخر عن تقديم فقرتي.. اعذرني، ولكنه العمل الذي أعيش منه.

يومئ أبو سالم برأسه موافقا ومستسلما، يقبل يدَها بلطف، ويترجلان سويًّا، بخطوات سريعة إلى داخل المكان.

وبينما تهرع ليلى إلى الداخل لتغيير ملابسها وارتداء بدلة الرقص الخاصة بها، يساعد (أبو سالم) أحدُ العمال في المكان لاختيار مكان مناسب للجلوس، على إحدى الطاولات المخصصة للزبائن المميَّزين كما أوصت بذلك ليلى قبل عدة أيام..

يجول أبو سالم بنظره المكان، كل تلك الأضواء، كل تلك الألوان، وكل تلك الملابس الملوَّنة والمزركشة والمطرَّزة، يبدو المكان أشبه بمهرجان أو كرنفال، لا يذكر أبو سالم متى كان آخر مرة في مكان مماثل، إلّا أن أصوات الأحاديث والضحكات من حوله، أدخلت البهجة إلى نفسه، وهَوَّنَتْ عليه فترة انتظار بدء الفقرة الخاصة بليلى، والتي كان ينتظرها بشوق!

وبعد عدة لحظات من الصمت ومن خفض الأضواء، فُتحت الستائر، وبدأت الفرقة الموسيقية بالعزف، أَطَلَّتْ ليلى بخلخالها المتدلي على قدمها التي تَلَوَّتْ عدة مرات في حركة متكررة جميلة، ثم انساب باقي الجسد على منصة العرض بعدة دورات متوسطة السرعة، توقفت قليلا، ابتسمت للجمهور، وقامت بتحيتهم، وتأكدت من وجود (أبو سالم) ومتابعته للعرض، أشارت للفرقة الموسيقية بالاستمرار بالعزف، وأخذت تجيء يمنة ويسرة، على أنغام الموسيقى وعلى وقع آلامها، كان أداءً مميزًا انفردت به الليلة، كيف لا

وهي في قمة السعادة، فلا شيء يسعد المغدور سوى الانتقام، وها هي لحظة الانتقام باتت قريبة جِدًّا من متناول يدها، وقفت شامخة، عالية، منتصرة، نظرت إلى الأسفل بكثير من الغرور والتشفي، سيكون انتقامها ضد كل الرجال، لجميع النساء...

وحين انتهائها من الوصلة وقبل انتهاء الجماهير من التصفيق الحار لها، تغادر مسرعةً، إلى غرفة تغيير الملابس، وترتدي الأبيض مرة أخرى، وتذهب لمجالسة (أبو سالم)، و بابتسامة عريضة تقول:

- كيف كان العرض؟

- أجمل ما رأيت في حياتي..

- سعيدة لأنني أعجبتك.... وتعبيرا لحبي لك سأقدم لك هدية..

يعجب أبو سالم بأسلوبها اللطيف والمشوّق، يتصبب عرقًا محاولًا توقع ماهية الهدية..

- ولكن وجودي معك الآن هنا هو أجمل هدية.

- شكرا حبيبي. ولكن لا... وجودي ليس كافيا... سأقدم لك أحد أفضل العاملات لدينا هنا...

تخف وتيرة حماسة (أبو سالم)، ويحل محلها الفضول الشديد..

- لم أفهم عزيزتي، ما قصدك؟

- امممممم، اسمع يا (أبو سالم)، هذا المكان الذي أعمل فيه، هو الأكبر والأكثر فخامة على الإطلاق في البلد، ولا منافس له، لا بجودة الخدمات، ولا بمهارة وخبرة العاملين فيه من عاملات وعاملين، لذلك فكرت بأن أقدم

لك ليلة مجانية مع إحدى العاملات هنا، لتقوم بتجديد شبابك ولتحظى بشيء من المتعة والسعادة..

يشعر أبو سالم بالغرابة...

- كيف؟ وأنتِ تحبينني، ألا تغارين علي؟

- هههه، لا، أبدا، ليس في هذا الأمر أي داع للغيرة، هذه متعة مؤقتة سأقوم بتقديمها لك كل مرة تجيء إلى هنا، وعلى العكس تماما سأكون سعيدة من أجلك..

- لا أفهم... لمَ عليك تقديم فتاة أخرى لي، وأنا وأنتِ متحابان؟

- هههه، (أبو سالم)، أنا وأنت متحابان صحيح، ولكن.. أنت تعلم أنني أعمل هنا، و أن لي زبائن أقوم على خدمتهم بطبيعة الحال، لذلك وأثناء تواجدك هنا سأقوم بأداء عملي بينما تقوم أنت بالاستمتاع بخدمات زميلاتي في العمل، ريثما أنتهي...

يمتعض قليلا، ينظر إلى الزجاجات الموجودة على الطاولة، ويقول بشيء من الفتور:

- كنت آمل أن أحظى بليلة معك هنا، وخاصة بعد العرض الجميل الذي قدمته.

- و أنا أيضا أنتظر هذه الليلة بفارغ الصبر، ولكن للأسف، إن جدول أعمالي هذا المساء ممتلئ، في الحقيقة، أنا أردت أن تتعرف على المكان وعلى طبيعة عملي و...

- لا بأس، لا بأس، أنت مشغولة اليوم، سآتي في وقت لاحق.

- لاحق؟ لا، لا، لا.... لن تذهب إلى أي مكان... ثم إنني سأشعر بالحزن إن لم تقبل بهذه الهدية التي أعددتها لك خصيصا..

- المشكلة أنني، لا أعلم إن كنت مستعدا.... لفعل أمر هكذا، كان الأمر يبدو سهلا لو كان برفقتك..

- هههههه، ليس عليك القلق، الفتيات هنا يفعلن كل شيء، أما أنت فليس عليك فعل أي شيء، سوى الاستسلام.

- إذن.. سأضطر للموافقة من أجل إرضائك فقط...

- هكذا أنا أشعر بالسعادة والرضا. ولكن قبلا سأحدثك قليلا عن مرافقتك التي ستكون معها بعد قليل... هي جديدة في هذا المجال، سبق وأن عملت هنا وفي أماكن أخرى ولكن ليس كثيرا، جميلة جِدًّا، حيويّة، تقول أنها اضطرت للعمل في هذا المجال مثلي تماما، إلا أنّها جيدة كفاية والزبائن يحبون رفقتها، بشوشة، كريمة لأبعد الحدود... و... ما رأيك في الذهاب الآن إلى غرفتها فهي بانتظارك..

- نعم، نعم، هيا بنا...

يقتربان من الغرفة المنشودة، ولا تكف ليلى عن الثرثرة عن الفتاة المرافقة، بحماس شديد.. ولدى وصولها إلى الغرفة تتوقف وتنظر إليه مباشرة:

- تفضل، المكان والزمان لك، والفتاة في الداخل بانتظار زبونها الجديد!.

يقوم أبو سالم بطرق الباب طرقا خفيفا ويفتح الباب، ليجد الفتاة المنشودة واقفة وظهرها في مقابل الباب، تكمل زينتها غير آبهة بوصول الزبون الجديد..

يتأمَّل مظهرها الخلفي، حذاء أبيض اللون بكعب عالٍ يصل إلى الركبة، تنورة بيضاء قصيرة جِدًّا تظهر أكثر مما تخفي، ثم بلوزة حمراء اللون لامعة بشدة بلا أكتاف، وقفازات بيضاء اللون متماشية مع الزي، شعرها المستعار أشقرُ طويلٌ إلى آخر ظهرها مُتَمَوّجٌ بتناغم وتناسق، إلا أن الغريب في هيأتها هو ضخامة بنيتها المفتقدة لأية أنوثة..

تشهق ليلى، وتضع يدها على فمها فجأة، وتتظاهر بالمفاجأة...

- هاه... آسفة، آسفة جِدًّا، يبدو أنني أخطأت بالغرفة، وبالقسم كاملا، فكما ترى يا (أبو سالم) هذا هو قسم (المثليّين)، فكما تعلم، هم يعملون مثلنا في هذا المجال، لذلك قامت إدارة الملهى بافتتاح قسم خاص بهم، ولكن وكما هو القسم الآخر الخاص بالنساء هو أيضا سري.

يقوم الشاب المتنكر بهيئة فتاة بالالتفات إلى جهة الباب، ليبدو وجه (سالم) المُغَطَّى بالمساحيق وقد عاد لطبيعته الأولى بعد عودته إلى البلاد.

يبتلع أبو سالم ريقه بصعوبة، ولا يكاد يستطيع التقاط أنفاسه..

تأملها جَيِّدًا، قشعريرة سَرَتْ في جميع أجزاء جسده، امتلأت عيناه بالدموع، سقط بعضها... سقط الشرف... سقطت الرجولة... سقطت الأبوة... سقط الدين... سقط العذاب... سقط الألم... سقطت مجتمعات بأكملها على هذه الشاكلة... لقد كانت لحظةَ سقوطٍ مثاليةً...

ابتسمت ليلى بِتَشَفٍّ وألم وقالت:

(لا ذنب يَمُرُّ بلا عقاب... ولو طال الزمان!).

نظر أبو سالم إلى ليلى، وأمعن النظر، تينك العينان، ذاك الشعر شديد السواد، وحبة الخال على وجنتها، إنها هي بلا شك، إنّها تلك الطفلة التي انتهك براءتها قبل سنوات طويلة!

(وَهْـــمٌ)

استيقظت نرجس فزعة... نظرت سريعا حولها، لا تزال في غرفتها في المستشفى.

- لا بد أنه حُلم ، كانت ذكرى جميلة، هي، وكل تلك الذكريات التي جمعتني بسالم الذي أشتاقه... (قالت لنفسها).

نظرت إلى النافذة، تراقب أغصان الشجر يطرق النافذة طرقًا خفيفًا يكاد صوته لا يُسمع، لا يزال الظلام يعم المكان، يا لها من ليلة طويلة... (قالت لنفسها).

نهضت من سريرها، خرجت من غرفتها، مشت قليلا في المَمَرّ... هدوء... لا أحد هنا سواها وذكرياتها...

صوت أنين وبكاء خفيف، صادر من إحدى الغرف، مما استرعى انتباهها وجعلها تخطو مسرعة باتجاه الصوت...

توقفت أمام إحدى الغرف... تجلس على الأرض، كانت نحيلةَ الوجه، هالات سوداء تحيط عينيها، توقَّفت عن البكاء فور رؤيتها (نرجس)...

- ياسمين؟! كيف أتيت إلى هنا؟

- نرجس... (ابتسمت)، كيف حالك؟ كيف هم أولادي؟ أين يعيشون؟ في منزلنا، صحيح؟ هل زرتهم؟ كيف هي عُلا؟ هل أصبحت بالجامعة؟ وعبد الله؟ لا بد أنه أنهى الابتدائية الآن، والصغيرة فاتن؟....

تقاطعها نرجس قائلة:

- لا أعرف، أنا لا أعرف عنهم شيئا، عدت توًّا من أمريكا، و لم أَرَ أحدا بعد، كانت عشر سنوات..

- عشر سنوات! عشر سنوات على رحيلي ولم تسألي عن أولادي؟

- اعذريني، كنت مريضة... ولكن.... ما..... ماهذا المكان؟ هل ممكن أن يكون حلم... و... ما.... ماذا حدث لك؟ كيف حدث لك ما حدث...

- أنا؟ كنت... كنت... أتألم... كانت حياتي عذابًا لا يُطاق... كنت.. كنت أشعر بالذنب الشديد.. فلم أكن موجودة معكم أثناء الحادث... لماذا؟ لماذا لم أكن موجودة معكم؟ ماذا كان سيحدث لي لو كنت معكم؟ نجوت دون أي وجه حق...

- كنت متزوجة، مستقلّة عن العائلة...

- ليس مبررًا.. لم أستطع... لم أستطع تقبل الأمر على هذا النحو، عندما رأيت ما حدث لوردة... والراحلة زهرة... ثم كل العذاب الذي شعرت به أمي، وصمت أبي الذي كان في ازدياد... كان عليّ أن أنال عقابي، لم أكن أشعر بالراحة إلّا عندما كان ينهال علي ضربا، كنت أصرخ وأتألّم، إلّا أنّني في نهاية الأمر كنت أشعر بالراحة، وكأنني كنت أستحقه، كنت أشعر بالذنب..

- لم يكن ذنبك أيًّا ما حدث...

- لم أكن معكم..... ثم.... ثم إنني كنت أتعمد إثارة غيرته وحنقه، كان لا بد أن أنال جرعتي اليومية من الألم.. إلّا أن... تمادى في أحد الأيام، وكانت القاضية...

- لماذا فعلت هذا؟

- لم يساعدني أحد في تجاوز ما كنت أشعر به من سوء..
- لم تخبري أحدًا.... لم تساعدي نفسك...
- استغفري لي... و.... اهتمي بأولادي، من أجلي...
- سأفعل....

نظرت نرجس للغرفة من حولها وقد بدأ الظلام يتآكلها... شعرت بالخوف وتراجعت للخلف.

- اذهبي، نرجس.... اذهبي من هنا، ما دامت الفرصة سانحة أمامك..
- وأنت؟
- هذا مكاني...
- ولكن... أين نحن...
- أنت حيث لا تنتمين.... اذهبي... هيا اذهبي... ساعدي نفسك..

تراجعت نرجس للخلف أكثر من ذي قبل، أدرات وجهها نحو الباب، ثم نحو ياسمين، فلم تجد لها أي أثر، ثم رأت نفسها في غرفتها من جديد ولكن الظلام كان في ازدياد، شعرت بالخوف الشديد، اقتربت نحو الباب في محاولة للفرار، إلا أن الخوف من المجهول جعلها مترددة...

سمعتْ صوتَ ارتطام كرة بباب غرفتها، فزعت بداية... ثم وضعت أذنها على الباب لتستمع لما خلفه، صوت ضحكات طفل في الجوار، اطمأنت قليلا... وها هو الظلام يتقدم نحوها.... استجمعت شجاعتها، وفتحت الباب بقوة، وأغلقته وراءها....

تلك الفتاة ذات الشعر الطويل المنسدل على كتفيها، والتي كانت في آخر الممر تلعب بالكرة، أعرفها..... إنّها نفس الفتاة التي رأيتها في الحلم يوم

سفري وكانت تقتطع أجزاءً من السحاب لتصنع منها بعض الكرات تشكلها بيديها، اقتربت منها نرجس.... وتقدمت إليها ببطء....

- زهرة؟

- نرجس...

كان صوتا من الخلف يناديها...

- نرجس...

التفتت إلى الوراء لترى انعكاسا مماثلا لزهرة، أمعنت النظر... نظرت مرة إلى زهرة ومرة أخرى إلى انعكاس صورتها.. في لحظة صمت من الجميع...

ثم تقدمت منها الصورة المنعكسة لزهرة، ببطء... فيما قامت زهرة باستكمال لعبها بالكرة....

- نرجس... مابك؟ لا تذكريني..

- وردة؟!

- نعم بالطبع....

- أنت... أنت...

- أنا مريضة جِدًّا، ولكنني سأشفى.. وأنت لمَ لا تزالين هنا؟

- لم أفهم، ماذا علي أن أفعل؟

- عودي إلى المنزل، إلى منزلنا...

- كيف؟

- غادري هذا المكان، غادريه فورا...

- لا أستطيع.... أنا عالقة هنا، و أظن أنني سأبقى عالقة هنا إلى الأبد..

- ليس صحيحا... عليك أن تغادري ما دام الوقت أمامك...

- لا أستطيع.. لا أستطيع إيجاد الطريق...

- عليك بالبحث...

- سأذهب لغرفتي، أريد أن أرى الكتاب الذي أعطيتِنيه.. أريد أن أرى كيف هي نهايتي...

- لا... لم تحن نهايتك بعد... هذا الجزء لم أكتبه بعد... عليكِ كتابته بنفسك.. كل منا عليه أن يكتب نهايته بنفسه...

- كيف تعلمين، سأذهب إلى غرفتي.....

تنظر نرجس حولها لترى نفسها بالفعل في غرفتها، تنظر إلى سريرها مرتبا كما هو، أما المنضدة التي بجانبها فكانت تخلو من أي كتاب..

- أين الكتاب؟

- نرجس.... لا كتاب بعد...

- ماذا تقصدين...

- نعم، لقد أخبرتك عن الكتاب الذي بدأت بكتابته، ولكنني لم أنتهِ منه بعد، قد أكون أخبرتك بأجزاء كبيرة من أحداثه في أحاديثنا السابقة، ولكنني لم أنهه، لم أطبعه ولم أقم بنشره بعد.... أعتقد أن هذا ما عليكي فعله عند الخروج من هنا....

- دليني على الطريق..

- لا أستطيع.... لكل منا طريق عليه اجتيازه...

- ماذا أفعل؟ أنا عاجزة تماما...

- اممم.... أتذكرين عندما كنا نقوم باختراع سيناريوهات لمشاهد تمثيلية؟

- نعم بالطبع أذكر...

-هكذا هي الحياة... تضعين سيناريو في رأسك، تتخيلينه، ترسمين حدودا، ثم ترين الطريق أمامك، وتكملين المسير...

- يبدو الكلام سهلا.. ماذا أفعل؟

- اسمعي، أريدك أن تفكري بما يوجد خلف هذا الباب، ثم عليكِ بتوجيه اهتمامك للمَرّ الطويل الذي يربط بين الغرف، فكِّري في أحد الأبواب كمخرج للطوارئ، تجاوزيه وانزلي السلالم، أنتِ في الطبقة العلوية من المبنى، عليكِ الوصول إلى الأسفل حتى تصلي إلى البوابة الرئيسية لهذا المبنى، وهو الطريق الوحيد للمغادرة....

- سأحاول...

- اذهبي الآن، قبل أن يحل الظلام على كل المكان.

- كيف أعلم أن كان وقتي قد انتهى؟

- ينتهي الوقت عندما تُعَلِّقين في الظلام، في ليل طويل لا ينتهي.. ينتهي الوقت عندما... عندما لا تشرق الشمس أبدا.. اتبعي النور..

- لا... لا.... هذا حُلم مريع...

تغمض عينيها، للحظة ثم تفتحهما وتنظر حولها... لا أزال في نفس غرفتها في المستشفى، ووردة ليست موجودة. تجلس على سريرها، تبحث عن كتابها، لا تجده، هدوء فظيع، ووحدة كبيرة تلك التي عاشتها منذ أن استيقظت في هذا المكان... تفكر بما قالته وردة.... أغمضت عينيها، ثم تخيَّلت موقع غرفتها بالنسبة للمبنى، قامت ببناء باقي الطوابق بمخيلتها أعطت غرفتها رقمًا، ثم باقي الغرف كذلك، في أقصى اليمين المصعد، في

الجهة المقابلة اليهو الذي يحتوي على غرفة السكرتاريا، وبعض المرافق الخدمية، تصميم المبنى كان سهلا، فباقي الطوابق هي متماثلة، باستثناء الطابق الأرضي الذي يؤدي إلى الخارج، هي في الطبقة الرابعة، ولا بد لها إذن من المغادرة الآن....

تحاول النهوض من سريرها، إلا أنها تعجز عن ذلك، وتشعر وكأن قوةً خفيةً تربطها، تجمدت في مكانها، لا تستطيع الحراك، حاولت الصراخ إلا أنّ صوتها لم يخرج من فمها، ذعرت أشد الذعر... حاولت الحراك لم تستطع... ثم اجتاحت أطرافها شعور بالخدر، أخذ يسري في عروقها ويستولي على جسدها، مما زاد الأمر سوءا، وكأن أطرافها أخذت بالموت التدريجي، فلم تعد تشعر برجليها، حوضها، جذعها، يديها.... صدرها... ها هو الموت يتسلل إليها بالتدريج، إلى أن شعرت بالنعاس الشديد الذي لا يُقاوم، واستسلمت له أخيرا...

(محاولة)

فتحت نرجس عينيها وقد كانت أشعة الشمس قد تخللت عبر النافذة إلى الداخل.. نظرت حولها، نهضت سريعا...

- أين أنا.... آه... في أمريكا، هذه شقة أحمد... أحمد... أين أنت، أحمد؟

في تلك الأثناء كان أحمد يقف في مقابل أحد الجدران يَئِنّ بصوت منخفض، نظرت نرجس حولها جَيِّدًا، لتجد نفسها في الحمام الخاص بشقة أحمد، نظرت إلى حوض الاستحمام، وفزعت حين رأته وقد امتلأ بالدماء...

- أحمد...

- نرجس....

ينطق اسمها وينظر إليها بطرف عينيه ولا يلتفت بالكامل..

- أحمد، ماذا حدث؟

يلتفت لها، يتقدم ببطء وأثر الإعياء يبدو عليه، يتصبب جبينه عرقا، يضع يديه الاثنتين فوق عورته وقد امتلأتا بالدماء...

تنظر إليه نرجس وتجزع لرؤية تلك الدماء...

- ما... ما بك؟..

يتقدّم منها ببطء، ثم يجلس على حافة حوض الاستحمام، مقاوما الألم الذي اشتد عليه..

- أتعلمين... أنا أيضا كنت أتألم.... لو.... لو أن أحدهم قام بمساعدتي لما حدث لي ما حدث...

- ما الذي حدث؟ عن ماذا تتحدث؟ أنت تنزف بشدة، يجب أن تذهب إلى المستشفى..

- لا... لا... اسمعيني... أنا.... أنا كنت، لقد... كرهت نفسي كثيرا، كرهت كل تلك القذارة الصادرة مني، كنت أكرهها، كنت أمقتها، منذ أن... منذ أن قام خالي بلمسي في المرة الأولى، وأنا أكره ما أنا عليه، كنت أشعر بالخوف كل مرة، كنت أشعر بالغضب، والحزن، كنت أشعر بالذنب...

- لما لم تخبر أحدا؟

- لم يكن ليصدقني أحد...

- كيف يعقل أن يحدث هذا..

- كنت صغيرا جِدًّا... وكان خالي... كان مقربا من والدتي، ووالدي أيضا...

- كان عليك إخبار أحدهم...

- لم أجرؤ... ثم كان عليَّ تقبل ذاتي والتعايش معها... مما أثار حنق عائلتي عندما تم اكتشافي...

- أشعر بالأسف من أجلك...

- لم أكن أريد منهم سوى تقبُّلي كما أنا...

- ولكنك، لست كذلك...

- بلى... بلى... أنا هكذا، ولن أتغير، تعايشت مع ذاتي، وتقبلتها، سامحتها على كل شيء، ثم إنني حاولت أن أعيش ذاتي كما أنا... إلى أن... إلى أن تمَّت خيانتي...

- خيانتك؟

- نعم خيانتي.... كان على سالم البقاء معي، كانت علاقتنا جيدة... كان يحبني، أنا متأكد من ذلك... إلى أن تحدث معي صراحة ذات يوم، وطلب مني الابتعاد، وأخبرني بسفره، وبزواجه بك... لم أستطع... لم أستطع البقاء مكتوف اليدين... لحقت به إلى هنا، وحاولت التقرب منه مجددا، الا أنه كان يقوم بصدي في كل مرة... وبالمناسبة.... لقد كذبت عليكِ سابقا.... لم يحدث بيننا شيء، كان سالم مخلصا لحبك.. كما عرفته دوما.... إلا أنني تمنيت ذلك...

- أه، أحمد...

- كان عليّ الابتعاد عنكما... كان عليّ ذلك... كنت أعاني أشدَّ المعاناة... فقد شعرت بالصدمة عندما أخبرني سالم بأنه يحبك كثيرا، قال أنه ربما كان تائها، مترددا في تحديد هويته، إلا أن حبك جعله يجد طريقه وأخيرا.... كانت جملته تلك مؤلمة للغاية... لقد أفسدت علاقتكما بالكامل نعم.... كنت أنا السبب في إفساد علاقتكما...

- هذا صحيح...

- لو... لو لم أكن موجودا بينكما لما غادرتِ تاركة سالما وراءك.. وقد عاد بالمناسبة...

- عاد؟ عاد أين؟

- قال أنه علم بأنك عائدة إلى الوطن وهو عائد وراءك...

- ماذا؟ عائدا؟ متى حدث هذا؟

- حدث هذا، عندما رأيته أخر مرة...

- متى كانت آخر مرة؟

- عندما خرجتِ من الملهى تلك الليلة... وقمتُ باللحاق بك... لم أجدكِ في شقتك.. ركبت المصعد ونزلت إلى الأسفل وعندما فتح الباب، كان سالم في الأسفل كان قد رآك خارجة من الملهى هو أيضا، كان قادما للبحث عنك، ركب معي في ذات المصعد، كان غاضبا جِدًّا... أخبرته أنك لست في الأعلى، لم يُلْقِ بالا لما قلت، ذهبتُ إلى شقتي، وذهب إلى شقته، بحث عنك ولم يجدك، مما زاد غضبه، ثم جاء إلى شقتي... كان يشعر بالغضب والحنق.... اعتذرت له... توسلت له أن يسامحني، جثوت على ركبتي، لم يهتم، لم يُلْقِ بالًا لسوء حالتي، كنت ضعيفًا، بائسا، لم يهتم، كان كل ما يهمه هو أنت، قال لي، أنني كنت السبب في إفساد حياته، وبأنني كنت دوما العقبة أمام سعادته... كان صادقا... كنت بهذا السوء...

تنظر نرجس إلى نافذة الحمام، وقد كانت أشعة الشمس على وشك الغروب... نظرت إلى أحمد وقد احمرت عيناه.... نظرت إلى الأرض لوهلة، ثم تذكرت كلام أختها وردة...

- ليس حقيقيا... ما أراه ليس حقيقا... يحدث فقط في عقلي....

استمر أحمد في حديثه...

- نعم كنت السبب، وكان لا بد لي من أن أتخلّص من السبب في شقائي وعذابي... أمسكت بمقص الخياطة الذي استخدمته مرارا في تشكيل القطع وتصميمها، وأقدمت على قطعه للتخلص منه... وثم... للتخلص من حياتي...

ارتبكت نرجس وقد شعرت بنبرة شر في جملته الأخيرة التي نطقها... نظرت إلى باب غرفته... وقالت لنفسها: (ليس علي سوى تجاوز هذا الباب، قبل مغيب الشمس.. يجب أن أعبر قبل المغيب)، رمقت أحمد بنظرة خاطفة، وقد ازدادت دماؤه في الانهمار، نظرت إلى الباب، وهمَّت في النهوض إلى أن أحمد قام بالإمساك بها بيده الملطخة بالدم فجأة من أسفل قدمها...

- أين تذهبين؟ فلتبقي معي... نحن أصدقاء... أليس كذلك؟..

فزعت نرجس، وحاولت الإفلات منه...

- لا، لا، لا تذهبي.... سنبقى هنا معا، أنا وأنت، سننتظر عودة سالم، ونعمل على إسعاده سويا...

- لا... لا، أرجوك، أحمد... دعني أذهب، عليّ أن أذهب من هنا، أرجوك...

- لا... لن تذهبي إلى أي مكان.... سنبقى معا... سنبقى معا...

تنظر نرجس إلى النافذة وتحاول الإفلات من أحمد بكل ما أوتيت من قوة، تجاهد نفسها حين أمسك بيديه الاثنتين رجليها، فقامت بدفعه إلى أن وقع في حوض الاستحمام... ونهضت مسرعة حتى وصلت إلى الباب، وفتحته بقوة، لتجد نفسها مجددا وكما علمت مسبقا في غرفتها في المستشفى....

- نعم... نعم... هذا هو المكان...

نظرت إلى النافذة وكانت أشعة الشمس قد ازداد انحصارها.... تقدمت مجددًا من باب الغرفة وقامت بفتحه... وكما توقعت تماما... المَمَرّ الطويل والذي يقع المصعد في أقصى يمينه، ذهبت نحوه مسرعةً... وحين أصبحت بداخله شعرت براحة كبيرة إلا أن المصعد توقف فجأةً عن العمل....

فتحت الباب بشيء من الصعوبة، لتجد نفسها في أحد الممرات... وقد سمعت صوت أحمد يناديها: (نرجس.. لا تذهبي، أنا قادم من أجلك)، فزعت وأخذت تركض إلى أقصى الممر، لا شيء، سوى مَمَرٍ طويل عليها اجتيازه، التقطت أنفاسها، أغمضت عينيها، تخيلت الباب المؤدي إلى مخرج الطوارئ في آخر المَمَرّ، فتحت عينيها ووجدته بالفعل أمامها.... ركضت نحوه.... وكان صوت أحمد أكثر علوًّا: (لن تذهبي إلى أي مكان، سنبقى هنا سويا، هههههههههه)، ركضت نحو الباب أسرع من ذي قبل... ثم فتحت الباب بقوة، واستمرت في النزول إلى الأسفل، الطابق تلو الآخر إلى أن رأت أحمد واقفًا على أسفل السلالم... توقفت... تجمدت في مكانها....

- هههههه، لا مهرب.... أين ستذهبين.... لا نستطيع الهروب من مصائرنا، لا نستطيع الهروب من أنفسنا مهما حاولنا...

- أرجوك، ابتعد عن طريقي..

- أنا؟ لست في طريقك....

- أرجوك، ابتعد... إن كنت فعلا تشعر بالندم على ما حدث عليك أن تساعدني بالابتعاد عن طريقي...

- هل أنت واثقة بأنه طريقك...

- هاه.... نعم، نعم.... من هنا طريق الخروج...

- لن تستطيعي الخروج من هنا، مالم تخرجيني من عقلك....

- هاه.... ماذا تقول؟ أرجوك، ابتعد.....أنا أتوسّل إليك....

- أخرجيني من عقلك....

- كيف؟

- سامحي نفسك، فقد أخبرتك بأنني المسؤول الوحيد عن عذاباتي، لمَ تلومين نفسك عما حدث لي؟...

- أنا.... كنتَ صديقي المقرب، أحببتك، أحمد، أحببتك كصديق.. من المؤسف ما آلت إليه الأمور، كنت سعيدة بصداقتك، كنت سعيدة بقربك مني، كنت سعيدة باهتمامك بي، كنت في بعض الأحيان أتمنى لو كنت شابا مثلك، حتى لا أشعر بالحرج من قضاء الأوقات معك...

- لا بأس.... لا بأس... هوّني عليك... ادعي لي الله ليغفر لي، أعلم أنّه يتفهّمني، أعلم أنّه يحبني ويقبلني كما أنا تماما... سأذهب... إلى اللقاء...

ويسير أحمد مبتعدا....تستمر بالوقوف وفي متابعته مغادرا، مذهولة كانت مما حدث تَوًّا، تجاوز بعض الأمور ليس بتلك الصعوبة، علينا فقط أن نثق بأنفسنا ونصدق معها..

تكمل طريقها، إلى الأسفل... توقفت فجأة وأحد الأبواب كان في أمامها، حاولت فتحه فلم تستطع... وضعت أذنها على الباب، تمنت للحظات لو كان سالم يقف وراءه، تذكرت سعادتَها معه في تلك الأيام الأولى من زواجها، تذكرتْ محاولاته الحثيثة لإبعادها عن أي مكروه، تذكرت كل تلك

المحاولات العلاجية التي باءت بالفشل، دفعت الباب بقوة وشَوْقٍ... متمنية أن يعود بها الزمن إلى الوراء لحظة واحدة لتراه مُجَدَّدًا...

تستيقظ نرجس وقد وجدت نفسها أسفل طاولة الطعام بجانب سالم، نظركلاهما إلى السطح الخشبي بالأعلى...

- تخيل، يا سالم، تخيل لو أننا الآن في المقبرة..

- مستحيل... أنا وأنتِ في نفس المقبرة؟

- لمَ لا؟... ستكون الرومانسية بعينها..

- رومانسية؟ هههههه، هل من الرومانسية التحدُّث عن المقابر؟

- لمَ لا؟... شكل آخر من أشكال الرومانسية.. يختلف عن الأزهار والرقص وكؤوس الشراب، وكل الأمور الأخرى التي تحدث بالأفلام..

- نرجس، بماذا تشعرين الآن؟

- بالحب بالتأكيد..

- لا لم أقصد هذا..

- هههههه، بالصداع الخفيف، والقليل من الألم في العضلات، ولكنها آلام محتملة نسبيا، وأنت؟ (نظرت إليه).

- وأنا أيضا، أستطيع احتمال آلامي، على الرغم من أنَّني بدأت بالشعور بالتوتُّر، قد أُدَخِّنُ لأتخلص من هذا الشعور..

- ولماذا تعتقد أن التدخين سيزيل شعورك بالتوتر؟

- لا أعلم، هذه هي الفكرة السائدة..

- بالأفلام؟

- ممكن..

- لا أعلم لماذا يتم الترويج للتدخين والمخدرات بالأفلام، وتُقَدَّم على أنها متع لا مثيل لها؟

- هههه، لأنَّها كذلك، عزيزتي..

- أنت لا تحب التدخين بالأصل..

- وأنت لا تحبين المخدرات في الأصل..

- نعم، ولكن...

- صدقيني الأمران سيان.. كيف بدأت؟ لم أسألك ولا مرة عن كيف بدأت؟ ألم تفكر يوما بالمبادرة وإخباري؟

- ليس مهما... المهم كيف سأنتهي...

- نعم، صحيح، سننتهي سويا، سنخرج من هذا المأزق سويا...

صمتا لبرهة، ثم نظر إليها، وأخذ يتأمل شعرها ووجنتيها ثم حدق بعض الوقت في شفتيها..

- كيف؟ فأنا بدأت أشعر بالوهن..

- بالحب، بالحب ينتصر كل شيء...

- هههههه، كلام أفلام..

- لا، كلام واقع...

- إذن، هَيّا...

- هيّا، ماذا؟

- ننتصر بالحب...

- هههه، لا، لا لم أقصد ممارسة الحب إطلاقا..

يضطجع سالم إلى جانبه وقد بدأ يتصبَّبُ عَرَقًا...

- لم لا؟.. لم نفعلها منذ مدة طويلة...

- ليس الآن.. إلا الآن.. لا.. لن نفعلها بهدف الوصول للنشوة..

- هههههههههه.

- ماذا؟

- ماذا لو تحوَّلنا إلى ذاك الاهتمام؟

- هههه، لا، لا أظن..

- لماذا؟ ماذا تعتقدين؟ تتعدد أشكال الإدمان، والنتيجة واحدة..

- صحيح، أعلم أن البعض مريضٌ بالشبق الجنسي..

- وهو تماما كالسمنة، كالتدخين، كتبذير المال على الشراء بلا أي داعٍ، هي بالنهاية وسيلة للهروب من أمرٍ واقع لا نريد أن نعيشه، أخبرني مرة طبيبٌ نفسي بذلك..

- طبيب نفسي؟

- أخبرني متى كان هذا؟ ماذا حدث؟

- حدث عندما كنت في فترة المراهقة، كنت قد عبرت فترة الطفولة بصعوبة، لم أكن أُحب الاختلاط بالفتيات، وكانت عندما تزورنا إحداهن أُصاب بالجنون والغضب، ثم أخذتني أُمِّي إلى طبيب نفسي رغما عني..

- هكذا بهذه البساطة..

- كنتُ ابنها الوحيد، وكانت تخاف عليّ من كل شيء، ولحرصها على صحتي النفسية. هههه...

- لا تضحك، لا تستهِن بخوف الأمهات...

ينظر إلى ساعته، وينهض من أسفل الطاولة... يجوب الغرفة ذهابا وإيابا وبحركة سريعة...

- لماذا نهضت؟...

- مر وقت طويل، وهذا مؤشر جيد.. ولكنني بدأت بالشعور بالتعب، وازداد توتُّري..

نهضت نرجس من تحت الطاولة، وشاركته المشي في غرفة الجلوس ذهابا وإيابا في مقابلة بعضهما البعض...

- أرأيت، بالحب نستطيع التغلب على كل شيء..

- أي حب؟ لقد كنا نتحدث فقط..

- التحدث جزء من الحب..

- والجنس أيضا..

- لا اعتراض لدي على الجنس، ولكنه التوقيت السيئ، لا أريد إفساد ما نقوم به..

- وبماذا نقوم نحن الآن؟

- هههههه، لا شيء..

- تماما...

- أتعلمين ماهي المشكلة؟ لا يوجد مؤشر، لا يوجد وقت محدد للانتهاء من هذا، متى سنعرف أنه علينا التوقف، متى سنعرف أننا شفينا؟

- أظن... عندما لا نعود نشعر بالألم، ربما..

- والآن ماذا نفعل؟

- نكمل، نستمر...

- لدي شعور مريع...

- فلنذهب للغرفة...

ويذهبا لغرفة النوم، تستلقي هي على السرير، وهو يفترش الأرض، ويقوم بتقليب نفسه يمينا ويسارا...

- ربما نحن اتبعنا طريقة خاطئة، ربما كان علينا البدء بالتخفيف أوّلا، وليس الانقطاع المفاجئ هكذا..

- لا، أنا كنت أراهم بالأفلام يقيدون...

- تَبًّا للأفلام..

- آه، صحيح بالتقييد، أقيدك أولا، وعندما تشفين تقومين بتقييدي...

- فكرة جيدة، على أحدنا أن يبقى بكامل قوته وتركيزه.. فكرة جيدة بالفعل، سأقيدك أولا...

- لا، لا، أنت أولا..

- لا، بالطبع لا... أنت أولا...

- سالم... أشعر بالغثيان والدوار، سأتقيَّأ... سأذهب إلى الحمام..

- وأنا سأستحم...

تخرج كل ما في جوفها، وتشعر بالدوار والإعياء نتيجة لذلك، تستلقي أرضا، تتابع سالما يستحم، يلاحظ إعياءها..

- كيف تشعرين الآن؟..

- أفضل... وأنت؟...

- أسوأ...

- صوت رذاذا الماء يوتّرني.. ألن تنتهي؟...

- بلى، انتهيت...

- أي تحسن؟

- لا... يزداد الأمر سوءا..

- هل سنموت؟

- لا... سنشفى...

- هل يعلم أحد بما نفعل؟

- لا...

- هل يعلم أحد من أصدقائك بأننا هنا وحدنا، وحدنا...

- لم أخبر أحدا...

- سنموت... سنموت.. ولن يكتشف أحد جثتينا...

- نعم... أنا أشعر بالسوء..

- أنا أشعر بأنني أموت، لا بد أنّ هذا هو الموت.. أنا أشعر به.. أنا أشعر به.. أنا لا أريد أن أموت، أعطِني شيئا، أنا أستسلم أنا لا أريد الشفاء... أرجوك، سالم، أرجوك أنقذني، أنا لا أستطيع المواصلة..

- ليس لدي شيء أعطيك إياه... احتملي، أرجوك.

- إلى متى؟ إلى متى سأحتمل؟ لا أستطيع، لا أستطيع...

وتصاب بنوبة من الانفعال، تجول الشقة وتبدأ بتحطيم وتكسير الأشياء، ينظر إليها سالم لبرهة، ثم يشاركها في تكسير أواني المطبخ، ثم تحطيم الأثاث، ثم يمسك سكينا ويطعن فراش سريره، يفرغه من حشوته، يتناثر القطن والريش في كل مكان..

- سالم، توقفْ... سااااااالم، توقفْ، اخرج الآن... اذهب وأحضر لنا شيئا لنتناوله... أرجوك، اذهب الآن..

يتوقف، ويقترب منها، يمسك وجهها بكلتا يديه وقد سالت دموعه..

- أنا آسف، أعتذر عن هذه التجربة السيئة.. سأذهب الآن سأحضر لك شيئا لترتاحي.. سأذهب... كانت فكرة غبية تعريضك لكل هذا الألم.. اعتني بنفسك جَيِّدًا، تماسكي...

يخرج سالم، فيما تنظر نرجس إلى ضوء النهار الذي أخذ بالأفول، تتذكر أنها عالقة في ذكريات وتخيلات موجودة فقط في مخيلتها، تنهض سريعا فزعة، فيما تختفي جميع آلامها وبشكل مفاجئ، تنظر حولها فإذا بها عالقة في غرفة المستشفى، تسرع باتجاه الباب، تقوم بدفعه بجسمها بالكامل، تتذكر طريقًا مختصرا، للوصول إلى الأسفل، إنه الدرج الرئيسي في منتصف البهو الرئيسي، تصل إليه، تنزل الدرجات مسرعة، تتوقف أعلى الدرجات وقد ألم عينيها ضوء الشمس الساطعة بقوة، تخفي عينيها بذراعها الأيمن، تنزلها ببطء، إنه الباب الرئيسي لمدخل المستشفى...

تبتسم وقد رأت (سالم)، يقف وراء البوابة من الجهة المقابلة، يرتدي بذلة سوداء اللون بربطة عنق أنيقة، شعره مرتب، والابتسامة تعلو محياه، ولون عينيه البندقي -الذي لطالما سحرَها- يبدو واضحا في ضوء النهار، يبدو كأول مرة تراه فيها، ما أجمل ذاك الشعور الذي يجتاحك حين تشعر بالحب للمرة الأولى! تسرع إلى الأسفل، تجتاز ما تبقى من درجات، تدفع البوابة الرئيسية بكل ما أوتيت من قوة، تركض نحو سالم، يفتح ذراعيه معانقا...

(البداية)

فوجئت أم ربيع والتي كانت متواجدة منذ عدة أيام في المستشفى، تعتني بنرجس وتراقب حالتها آملة أن تستيقظ وتستعيد وعيها، فوجئت بحضور (أبو ربيع) إلى المستشفى، فلقد كان يتجنب الذهاب إلى المستشفيات منذ وفاة ابنته زهرة، بعد الحادث بعدة أيام قليلة...

- (أبو ربيع)، ما الذي أتى بك إلى هنا..

- أتيت لرؤية ابنتي..

- جيد، ستنجو، أشعر بأنها ستنجو...

يسحب كرسيا ويضعه بالقرب من الكرسي الذي تجلس عليه أم ربيع، قرابة سرير نرجس الذي ترقد عليه، يخلع نظارته... يمسح وجهه بمنديل.. يرتديها من جديد، وينظر إلى الجسد الملقى أمامه بحزن عميق..

- اليوم هو ذكرى وفاة زهرة.

نظرت إليه أم ربيع، أمسكت بيده، ضغطت عليها قليلا..

- أما آن الأوان أن تنسى؟ سامح نفسك.... ليسامحك الله.. لا أحد منا بلا ذنب، نرتكب الذنوب إلى أن نموت، لا مفر، إنها الحياة، لا تعذب نفسك، لا تحملها أكثر من طاقتها، أقبل على الله، بأي طريقة.... توجه إليه، اطلب المغفرة والسماح، ثم سامح نفسك بصدق، كف عن جلد ذاتك، أنت ملك لله، وقد قسوت على نفسك كثيرا، كيف تجرؤ على التعدي على ممتلكات الله؟!.... الله أرحم بك من نفسك... إلى متى ستقسو عليها؟...

- ولكن ذنبي كبير، أعجز عن العيش بشكل طبيعي كالسابق.

- ألم تعجز من العيش بالذنب طوال تلك السنوات؟...

- لا بأس، تلك عقوبتي، أعلم أن نرجس أيضا، آخر أبنائي ستموت أيضا، ذلك هو عقابي، وأنا أتقبّله، برحابة صدر وإيمان..

- لا... لا تقل هذا، هل تظن أن وفاة نرجس ستريحك؟ نعم، أنت تظن هذا، لقد تمنيت هذا في الحقيقة، أنت كنت تتمنى هذا، كنت سعيدا بنفوق أولادك واحدا تلو الآخر، كنت تظن أنه الحل، وأنها الطريقة الوحيدة لتكفير ذنبك، طريقك للتطهر... أنت أردت هذا، أنت أردت عقاب نفسك، لا تنسب السوء إلى الله... أنت أغرقت نفسك في تعذيبها، وانصرفت عن الانتباه إلى شؤون أولادك، أنت لم تعتنِ بهم، أنت تسببت في ضياعهم، أنت تسببت في مقتلهم بسبب إهمالك، لقد كنت أنانيا بما يكفي لتنسحب من حياتهم وتغلق على نفسك أبواب الرحمة، تعاقبها مرارا وتكرارا، تجتر الذنب اجترارا، تعذب نفسك وتعذبهم معك، السوء منك أنت، وليس من الله، لا يأتي السوء من الله أبدا...

تقوم أم ربيع من مكانها وتقف قبالته، تشتد لهجتها وترتفع نبرة صوتها، وتقول بحزم وثقة..

- نعم... إياك، ثم إياك أن تنسب السوء والشر إلى الله، الله أكبر من أن يعذب أبنائي بلا ذنب، الله أرحم من أن يسلبهم حياواتهم قبل أن يعيشوها، الله أكرم من إغراقهم بالعذاب، الله أعدل من أن يسلبني إياهم..

تجلس أم ربيع، وتغرورق عيناها بالدموع، تشاركها السماء البكاء في ليلة ماطرة باردة، تنظر إلى الأعلى و تقول:

(يا رب... يا حبيبي يا الله.. اكتفينا من تعذيب أنفسنا، ظلمنا أنفسنا كثيرا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين، يا واهب الحياة، يا واسع العطاء، نحن عبيدك، عصيناك مرة تلو الأخرى، اغفر لنا خطايانا وتقبلنا بقبول حسن، يا رب، ارحمني وقرعيني بنجاة ابنتي نرجس، اللهم إني أسألك بكل عذاب تملَّكني، اللهم إني أسألك بكل الألم الذي عاشه هذا الرجل، بأن تهب لنرجس حياة جديدة أُقِرّعيني بها... يا الله يا واسع العطاء، يا مجيب الدعاء... اللهم تقبل مني، اللهم تقبل مني...).

تمسح أم ربيع وجهها، وتنظر إلى (أبو ربيع) الذي بلغ التأثر فيه مكمنه، وأخذ يبكي، بصمت...

- لقد تعبت، تعبت من تعذيب الضمير الذي كنت أعيشه.. ليتني لم أنشغل بتأنيب نفسي عن تربية أبنائي، ليتني أصلحتهم وأخلصت تربيتهم بدلا من العيش في الماضي.. سأذهب إلى المسجد المجاور، منذ مدة طويلة لم أتجه إلى الله، لم أُصَلِّ له، لم أتوجه إليه بدعوة، عددت نفسي من الملعونين المطرودين من رحمة الله، حاكمت نفسي، وقبلت حكمي الجائر، نعم، أنت صادقة، (الله غفور رحيم)، سأذهب إليه، ما المانع من أن أذهب إليه؟! سيتقبّلني، أنا واثق أنه سيتقبّلني، هو ربي خلقني وسوف يهديني، كان شيطاني أكبر مني، وتملكني لمدة طويلة، انتهى عهد الشيطان معي، سأذهب لأجدد عهدي مع الله، سأسامح نفسي، سأسامحها... أرجو أن يسامحني الله ويهديني للطريق الصحيح...

ويذهب إلى المسجد المجاور، يمكث فيه ما تبقى من الليلة، إلى أذان الفجر، يصلي ويعود آفلًا إلى المستشفى حيث أم ربيع غفت قليلًا على الكرسي..

- أم ربيع... أم ربيع..

- هاه.... أه.. لقد نمت... طلع الصباح وتوقف المطر..

- صباح الخير...

قالها بوجه مشرق، وابتسامة علت محياه...

نظر كلاهما إلى نرجس وكانت تنظر إليهما بعين نصف مفتوحة..

أردفت أم ربيع:

(صباح الورد، صباح الزهر، صباح الياسمين، صباح الربيع، صباح النرجس، والأمل، والنهار، صباح اليوم الجديد، صباح الحياة الجديدة، صباح من الله إلى كل الدنيا، صباح من الله إلى قلب كل أم، صباح من الله إلى كل أب، صباح من الله إلى كل ابن وكل ابنة، صباح التوكُّل والمضي على رحمة وبركة الله)!

(خاتمة)

في الصباح الباكر ليوم الجمعة، كان أبو ربيع وأم ربيع في غرفة المستشفى مع ابنتهما زهرة التي ترقد للعلاج بعدما احترقت بالكامل نتيجة حادث انقلاب السيارة والذي حدث قبل أسبوع، كان أبو ربيع يجوب الغرفة ذهابا وإيابا، متوترا، خائفا، غاضبا، وقد لف رأسه بعدة شاشات بسبب الخدوش التي أُصيب بها جراء الحادث، أما أم ربيع، فكانت تجلس بجوار طفلتها ولم تتوقف عن البكاء لحظة واحدة....

كان أبو ربيع يشعر بالامتنان إذ إن جميعهم قد نجوا من الحادث، ولم يصب أحدهم سوى بجروح ورضوض بسيطة، باستثناء زهرة، التي ستعيش منذ اليوم أسيرة لجسد أكلت النار منه أكثر مما أبقت..

تقدم أبو ربيع من الأجهزة الموصولة بجسد ابنته الصغير، مد يده إلى جهاز التنفس الاصطناعي، نظر إلى أم ربيع، ثم إلى وجه زهرة... وبعد عدة لحظات من التردد، مد يده بحزم، وقام بسحب القابس، قام بإيقاف حياتها!

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذو جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017